الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد السادس — ٤ صفر سنة ١٣٥٦ — ١٥ ابريل سنة ١٩٣٧ — السنة الأولى

فهرس العدد

صفحة			
٣٣٠	الحامى	لجى دى موباسان	بقلم أحمد حسن الزيات
٣٣٤	هتاف الهاوية	أقصوصة فرنسية	بقلم ف . ف
٣٣٦	كيف كنت عماً	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى
٣٤١	مبارزة	لفولا تيشوف	بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقى
٣٤٥	من القاتل	لأندريه وارنود	بقلم الدكتور محمد الرافعى
٣٥١	فى سبيل الزوجة	لتوماس هاردى	بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب
٣٥٧	يوميات نائب فى الأرياف	صور مصرية	بقلم الأستاذ توفيق الحكيم
٣٦٣	الساحر	لتشيرلكوف	بقلم الأديب نظمى خليل
٣٧١	صيد السمك	للكاتبة الانجليزية سرسفلد	بقلم الأديب حسن حبشى
٣٧٤	اعترافات فتى العصر	لألفريد دى موسيه	بقلم الأستاذ فليكس فارس
٣٨٠	الأوذيسة	لهوميروس	بقلم الأستاذ دريني خشبة
٣٨٥	سر أبى الهول	لموريس رستان	بقلم الأستاذ خليل هنداوى

الحامي

للكاتب القصصي جي دي موباسان

بقلم احمد حسن الزيات

لم يكن جان مارين يقدر في حلمه ولا في وهمه أنه سيكون يوماً على هذه الثروة وفي هذه المنزلة وهو ابن محضر من محضري الأقاليم . أرسله أبوه إلى الحي اللاتيني يدرس الحقوق كما يدرسها كثير مثله ، فكان حلساً من أحلاس مشارب البيرة يغشاها واحدا بعد واحد ، حتى اتصلت أسبابه بطائفة من الطلبة الرغائين الذين يستفرغون أحاديث السياسة وهم يتعاطون أكواب البيرة . واشتد إعجابه بتخليطهم وولوعه بخلاطهم ، فطلبهم في كل مجلس ، وتبعهم إلى كل قهوة ، حتى كان يؤدي عنهم ثمن ما يشربون إذا كان في كيسه فضل . ثم عالج المحاماة فلم يفز في قضية من القضايا التي دافع عنها

موباسان

وفي ذات صباح قرأ في إحدى الصحف أن رفيقاً من رفاق الحي اللاتيني انتخب عضوا في مجلس النواب ، فأصبح له الظل الملازم والكلب الأمين ، يؤدي كل سخرة ، ويلبي كل طلب ، ويبتذل نفسه للنائب في كل ما جل وقل من غير كلفة ولا حرج

ثم اتفق في إحدى المغامرات البرلمانية أن صار هذا النائب وزيرا ، فلم تمض ستة أشهر على ذلك حتى عين جان مارين مستشارا في مجلس الدولة

* * *

أصاب الرجل أول ما أصابه فكة من الصلف والكبر طاش بها لبه وغاب فيها صوابه ، فكان يجوب الشوارع ولذته أن يظهر للناس ، كأنهم يستطيعون أن يعرفوا المنصب الذي صار إليه ، بمجرد أن تقع أبصارهم عليه . وكان يتصيد المناسبات ويترصد الفرص ليقول لصاحب الحانوت وبائع الصحف وسائق المركبة :

أنا — ومنصبي مستشار في مجلس الدولة — . . .

ثم شعر بعد ذلك بالحاجة الملحة إلى أن يحمي غيره ، كأنما اقتضاه ذلك الشعور كرامة المنصب ، وضرورة المهنة ، وواجب القادر الكريم . فقدم سنده وعونه إلى كل امرئ في كل أمر ، وبسط عنانه في ذلك حتى عفا على حاجة المحتاج وسؤال السائل . كان إذا لمح في الشارع وجهاً يعرفه دلف إليه في لهفة وهشاشة ؛ ثم تناول يديه وسأله عن صحته وحاله ،

وقال له قبل أن يسمع الجواب عن سؤاله :

تعرف أنى مستشار الدولة ، وستجدنى إن شاء الله عند حاجتك؛ فعول على ما شئت فى غير ضيق ولا حرج؛ والمرء فى مثل منصبى طويل الباع عريض المقدرة

ثم عجل بكل من يقابله هذه المقابلة ، ويسائله هذه المساءلة ، إلى القهوة القريبة ، فيطلب قلما ودواة وورقاً من أوراق الرسائل « ورقة واحدة ، يا غلام ، فانى أريد أن أكتب كتاب توصية »

كان يكتب فى اليوم الواحد من عشرة كتب إلى خمسين كتاباً فى التوصية ، فلم يدع قهوة فى العاصمة إلا كتب فيها ، ولا موظفاً فى الحكومة إلا كتب إليه ، وكان بذلك رخى الصدر موفور السعادة

* * *

ففى صباح يوم من الأيام كان فى طريقه إلى مجلس الدولة فأمطرت السماء ، فراودته نفسه أن يركب مركبة ولكنه لم يفعل ، وآثر أن يبلغ مكتبه على قدميه . ولكن الغيث انسكب مدراراً فشرقت به الطرق وغرقت فيه الأفاريز ، فاضطر السيد مارين أن يلوذ منه بأحد الأبواب ؛ وكان قد لجأ إليه قبله قسيس شاع المشيب فى رأسه ولحيته . والسيد مارين كان يكره رجال الاكليروس ، فلما صار مستشاراً أصبح يحبهم ، لأن أحد الكرادلة جاء فى أدب واحترام فاستفتاه فى مسألة عويصة

كان المطر لا يزال ينهمر غزيراً ، فدفع بالرجلين إلى مأوى البواب يتقيان به البلل ، وكان فى طبع السيد مارين حافز يشبه الحكة يغريه دائما بالكلام ليرفع من شأنه ويدل على نفسه ، فقال :

— هذا يوم فظيع يا سيدى القس

فانحنى القسيس الشيخ وقال :

— نعم ياسيدى ، وهو أفظع على من يقدم إلى باريس يقضى فيها بضعة أيام

— آه ! أنت من الأقاليم ؟

— نعم ياسيدى وما أنا فى باريس غير عابر . . .

— لا جرم أن هذا الوابل الهتون يثقل على نفس العابر الذى يريد أن يقضى فى العاصمة بضعة أيام ؛ أما نحن معشر الموظفين الذين لا يبرحونها طول العام فلا نكاد نعبأ به ولا نفكر فيه

لم يجب القسيس وإنما أخذ ينظر إلى الشارع وقد خف هطول المطر ، ثم شرع فجأة يشمر مسوحه عن ساقيه يريد أن يعبر الطريق كما يفعل النساء حين يردن عبور الجدول . فلما رآه السيد مارين يريد الانطلاق صاح به :

ستبل نفسك ياسيدى القس ، فتمهل قليلا فقد أوشكت السماء أن تقلع

فوقف الشيخ المتردد وهو يقول :

— أنا يا سيدى على حد عجلة ؛ وإن عندى موعداً لا سبيل عنه ولا وقت له

فتبين فى وجه السيد مارين الكدر ، وقال للقسيس : إنك ستعبر الطريق لا محالة . ولكن ، هل أستطيع أن أسألك إلى أى الأحياء تريد أن تذهب ؟ فتردد الخورى ثم قال :

— إنى ذاهب إلى جهة (الباليه رويال)

— إذن أستطيع ، إذا سمحت يا سيدى ، أن أقيك البلل بمطريتى ، فانى ذاهب إلى مجلس الدولة وأنا مستشار فيه

فرفع الشيخ القسيس إليه أنفه وجلى فيه بصره ، ثم قال : قبلت ياسيدى ، وأشكرك جزيل الشكر

حينئذ أخذ بذراعه ومشى يجره ويسدده ويرشده وينصحه :

« خذ حذرك ياسيدى القس من هذا السيل .

اتق على الأخص عجلات المركبات ؛ إنها ترشك أحياناً من قدمك إلى رأسك . اجعل بالك لمطريات المارين فلا شيء أخطر على العين من أطراف حديدها ؛ والنساء على الخصوص أشق على السائرين فى ذلك ، فانهن لا يحفلن بشيء ولا يلتفتن إلى أحد ، وقد يغرسن فى حر وجهك أطراف مظلاتهن أو مطرياتهن . وهن عشين لا يبالين كأنهن يملكن المدينة ، فهن يحكمن على الافريز وفى الشارع . وفى رأيى أن تربيتهن مهملة أو مغفلة .

ثم جعل المستشار الناصح يضحك والحورى الشيخ صامت لا يجيب ؛ انما كان يسير محنى القامة يتحسس فى عناية وحذر موضع خطوه حتى لا يلوث نعله ولا ثوبه

استأنف السيد مارين الحديث قال :

إنك قدمت إلى باريس لتلهو فيها قليلا ولا شك . فقال له القسيس فى سذاجة :

كلا ، إنما قدمت فى عمل

— آه ! وهل هو عمل مهم ؟ وهل لى أن أسألك عن موضوعه ؟ إذا رأيت أنى أنفعك بنافعة فانى طوع أمرك

بدا على الحورى الارتباك ونم حاله عن القلق فقال مغمغما :

أوه ؟ إنها مسألة صغيرة شخصية ؛ هى مشكلة تافهة مع . . . مع مطرانى ، إنها لا تعنيك . . . مسألة داخلية من . . . من . . . نوع اكليروسى

فبادره السيد مارين بقوله : ولكن مجلس الدولة هو الذى يقضى فى مثل هذه الأمور . فاعتمد على فى شأنك . فقال القسيس :

نعم يا سيدى وأنا ذاهب إلى هذا المجلس . إنك طيب القلب جم المروءة . إن مسألتى بين أيدى السادة لوربير ، وسافون ، وبتيبا

فقال السيد مارين فى اهتمام ولهفة :

— ولكنهم يا سيدى القس من صفوة أصدقائى ومن خيرة زملائى . وكلهم ظريف الطبع عذب الخلق . فاحمل على من أمرك ما تحب . وسأكتب إلى ثلاثتهم كتب التوصية بك لا آلوهم فيها تأكيداً ولا شفاعة . فأقبل القسيس يشكر ويعتذر ويتضرع والسيد مارين يقول له فى غبطة وزهو :

إن من حقك أن تفخر بمثل هذا الحظ الناهض يا سيدى القس ؛ وسترى أن قضيتك بفضلى ستسير من غير حائل ولا شاغل

فلما بلغا دار المجلس صعد السيد مارين إلى مكتبه وقدم إليه كرسيا أمام المدفأة وجلس هو على مكتبه وطفق يكتب :

« زميلى العزيز ! ... اسمح لى أن أوصيك خيراً برجل فاضل من رجال الدين ومن أوفرهم كرامة وأكثرهم جدارة هو القسيس .. » ثم قطع الكتابة وسأل :

— اسمك من فضلك ؟

— القسيس سانتور

فعاد السيد مارين يكتب :

« القسيس سانتور ، وهو فى حاجة إلى جميل عطفك ونبيل عونك فى مسألة صغيرة سيحدثك عنها : أنا سعيد بهذه الفرصة التى سمحت لى يا زميلى العزيز أن . . .

ثم ختم الكتاب بالتحية المعروفة ...

ولما حرر ثلاثة الكتب وطواها ألقاها إلى صنيعته وحميّه فأخذها ومضى وهو يلهج بالثناء ويلهث بالشكر

* * *

أتم السيد مارين عمله ، ثم انقلب إلى بيته ، فقضى نهاره رخى البال ، ونام ليله قرير الجفن ، ثم استيقظ صباحه منشرح الصدر ، فدعا بصحف

الصباح فكان أول ما وقع فى يده صحيفة انقلابية (راديكالية) وكان أول ماقرأ فيها هذا الخبر :

« اكايروسنا وموظفونا »

لا تكاد سيئات الاكايروس تنفد على الاحصاء : هذا قسيس يدعى سانتور قد ثبت عليه بالدليل القاطع أنه ائتمر بالحكومة القائمة ، وأنه اقترف طائفة من المنكرات نصون القلم عن ذكرها ؛ وقد اتهم فضلاً عن ذلك بأنه يسوى قديم تقمص ثوب قسيس نائى . ثم عزله مطرانه لأسباب يؤكد الراوون أنها مخزية . وقد استدعى إلى باريس ليحاسب على هذا السلوك ، فاهتدى إلى مدافع وارى الزناد حديد الفؤاد فى مستشار يدعى مارين لم يتحرج فى أن يوصى بهذا الشرير الفاسق جميع الموظفين الجمهوريين من زملائه . نسجل هذا الخبر المريب ، ليرى معالى الوزير رأيه فى موقف هذا المستشار الغريب . . . »

لم يكد السيد مارين يأتى على آخر هذا الخبر الصاعق حتى وثب فارتدى ثيابه وذهب يعدو مهطعاً إلى زميله (بتيبا) . فلما رآه الزميل صاح به :

— ويحك ! أبلغ بك الجنون أن توصى بهذا المؤتمر العجوز ؟

فأجابه مارين وهو من الجزع لا يملك قلبه ولا يجد لسانه :

— حاشا ! حاشا ! رويدك ! لقد خُدعت ! تظاهر هذا الخبيث بالورع والنبل حتى خدعنى . . خدعنى بنذالة ؛ فأرجو أن تحكم عليه بصرامة . لاتأخذك به رأفة . . . أما أنا فسأكتب . قل لى إلى من ينبغى أن أكتب لأسأله أن يحكم عليه ؟ أنا ذاهب إلى النائب العمومى . . . ثم إلى رئيس الأساقفة . . نعم إلى رئيس الأساقفة . . .

ثم جلس فجأة إلى مكتب السيد (بتيبا) وأخذ يكتب :

مولاى . أتشرف بأن أرفع إلى عظمتكم أنى وقعت ضحية لدسائس وأكاذيب نسجها قسيس يدعى سنتور ثم فاجأ بها سلامة نيتى . ومازال يدور من وراء خديعتى حتى حملنى على أن أكتب . . . .

ولما أمضى الكتاب وغلفه التفت إلى زميله وقال له :

أرأيت يا عزيزى ؟ عساك أن تتخذ مما حدث لى درساً وعبرة . إياك أن تكتب كتاب توصية بأحد ! أسمعت ؟ (الزيات)

الى كل كاتب عربى فى مصر وفى غير مصر :

المباراة القصصية للرواية

تشجيعاً للقصص العربى تفتتح (الرواية) مباراتها السنوية فيه بهذه المباراة :

مباراة فى الأقصوصة

جائزتها خمسة عشر جنيهاً مصرياً

يوزعها المحكمون على الفائزين الأول والثانى

الشروط

١ — أن تكون الأقصوصة شرقية الموضوع
٢ — « « « بليغة الأسلوب
٣ — « « « نبيلة الغرض
٤ — ألا تزيد على عشر صفحات من (الرواية)
٥ — ألا يتأخر موعد إرسالها إلى (الرواية) عن آخر مايو سنة ١٩٣٧

لجنة التحكيم سنعلن عنها فيما بعد

هتاف الهاوية

اقصوصة فرنسية

كانت الجيوش الانكليزية معسكرة على قمة جبل الكوبا متحصنة فى مركز منيع ، لا تحسب للحملة الفرنسية حساباً ، وكانت هذه الحملة تدور بقاعدة الجبل ولا يعلم قوادها كيف يتدبرون الأمر ، حتى رأى القائد الأكبر (ناى) أن يجمع الجيوش وينظمها ليقذف بها الجبل المنيع . ودوت الوديان بصوت النفير المعلن الهجوم ، فاندفعت الكتائب تتسلق الصخور كأنها محمولة على أجنحة ترفعها رفعاً فى الهواء

وما مضت ساعة حتى كانت عساكر ناى وعددها أربعة آلاف مقاتل تحدق بالانكليز على قمة الجبل ، فذعر الجيش المرابط لهذا الهجوم المفاجىء فأصلوا الهاجمين من مدافعهم ناراً حامية ردتهم لأول وهلة على أعقابهم ، فلم يعد يرى على تلك المرتفعات المعانقة الغيوم إلا أشلاء تتطاير فى الجو ، ولم يعد يسمع إلا الأنين يخفته إرعاد البارود يعقد بدخانه الكثيف قبايا تعمى العيون . وكان كلما أبادت المدافع صفاً من صفوف الفرنسيين يتقدم غيره من ورائه ليتقبل الموت . ونفدت الذخيرة ، فصمتت المدافع ، وبدأ الدخان ينقشع عن الموقع ، فخشى الانكليز ارتداد الأعداء عليهم فعادوا أدراجهم مدبرين

وارتفع صوت المارشال ناى هاتفاً بجنوده :

— هيا إلى الأمام !

فتراكضت الكتائب لاحقة بالأعداء معملة فيهم السيف حتى بلغوا منحدر الجبل للجهة الثانية ، فارتجفت الأرض تحت أقدام المتراجعين والهاجمين واهتزت الصخور وفتحت الهاوية فاها ، فتساقطت الجنود فيها فى أقل من لحظة ، وتراجع من بقى إلى الوراء وهم يسمعون صراخ رفاقهم يصعد من الهوة بأنين يفتت الأكباد . وساد السكوت بعد برهة ، فرجعت الوديان صدى عويل الشجعان ، وقد توارروا عن الأبصار فى ظلام هاوية لا قرار لها

ومرت الساعات وقد عاد كل من الفريقين إلى معسكره واهى القوى ، وقد خارت العزائم أمام هذه الكارثة ، وتضعضع الرأى فى إنقاذ ضحايا الهاوية

وعند الساعة التاسعة قبل الظهر دخل معسكر الفرنسيين رسول من قبل (ولنجتون) وطلب المثول أمام المارشال ناى ، وكان هذا منفرداً فى مضربه غارقا فى لجج التفكير يتقطع قلبه حزنا . فتقدم الرسول ووقف بين يديه وقدم إليه رسالة من مولاه ، فأخذها من يده وتلاها كأنه مستفيق من حلم عميق ثم نادى أحد القواد وقال له :

— أعد فرقتك لتسير معى الى الجبل

وما مضت دقائق معدودة حتى كانت الفرقة تتسلق الجبل بقيادة المارشال . فلما وصلوا إلى القمة رأوا ولنكتون فى انتظارهم وحوله قواد جيشه ، وكلهم واجمون . فقال ولنكتون لناى :

— إنك مهتم ولا ريب بأمر الشجعان الذين ابتلعتهم هاوية الكوبا هذا الصباح . وأنت تعلم أن المداء يقف عند الكوارث ؛ فلنتعاون لعل بين رجالك ورجالى أحياء يمكن إنقاذهم من هذه الميتة الشنعاء

وتقدم ناى إلى ولنجتون وصافحه قائلاً :

— كان علينا أن نفكر فى هذا الأمر دون تأخير ، ولكن الاضطراب جمد دمى ، وهذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أشعر بها برعشة الخوف

وتقدم الجمع إلى فوهة الهاوية ، وكانت الشمس المحرقة تعكس أشعتها على الصخور البيضاء ، والهواء

البارد يتصاعد من القاع السحيق . وأحنى القائدان الكبيران رأسيهما ، فعلا وجههما الاصفرار ، إذ وقفت أنظارهما فى القعر البعيد الغور على لبد الظلام

وقال المارشال : يجب أن تدلى أحد الجنود ليرى ماحل برفاقه . والتفت إلى أحد القواد قائلاً : أحضر الحبال واثنى برجل

وخرج من الصفوف جندى فرنسى طويل القامة ، وهو يبتسم مفتخراً بالتضحية فى سبيل إخوانه ، فخلع سترته ، وربط وسطه بطرف الحبل الطويل ؛ وبعد أن رفع يده بالسلام أمام المارشال وضع رجليه على فوهة الهاوية ، وبدأ الجنود يُرخون الحبل ، وعندئذ تقدم أحد الجنود الانكليز طالباً النزول إلى الهاوية أيضاً ، فقال نای لولنكتون : لا يرسل فى مثل هذه المهمة عدوان ، فقد يشتبكان فى المنحدر بعراك يحول دون بلوغنا النتيجة التى نتوقعها

فأطرق ولنكتون وتراجع الجندى الانكليزى إلى صفه . وكان الجنود يصلون الحبل بحبل آخر ، وبثالث ورابع ، حتى شعروا بوقوف الجذب من الأعماق . فنادوا جميعهم بصوت واحد :

— ماذا ترى ؟

فأجابهم صوت الهاوية كأنه صدى بعيد : لا أرى شيئاً ، أرخوا الحبال أيضاً

واستمر الجند على إرسال الحبال وقد خفت قوة الجذب ، فاستدل القواد أن الشجاع يسير على مهل بين الصخور متلمساً سبيله على مفاوز لم تطأها أرجل بشر

وما مضت دقائق حتى أصبحت الحبال تلوح فى الفضاء كأنها لا تحمل شيئاً ، فوجم ولنكتون وقال : أحضروا القس الذى وجدناه هذا الصباح على سفح الجبل فلعله يعرف منفذاً لأخراج رجالنا منه

ومثل القس أمام القائدين فقال له ولنكتون : أنت من أبناء هذه البلاد ، فهلا تعرف منفذاً بين هذه الوهاد العميقة نخلص منه رجالنا ؟

وتقدم القس الى فوهة الهاوية ، ثم تراجع وقد كاد جبينه العرق وامتقع لونه ، فقال أحد القواد : لقد زلزلت الأرض فجأة تحت أقدام الجنود فتدحرجوا فى هذه الهاوية

وقال نای : لقد سقط أربعمائة من شجعانى فى هذه الحفرة

وقال ولنكتون : وألف من شجعانى ابتلعتهم هذه الحفرة أيضاً

وعلق الجمع الانظار على شفتى القس منتظرين ارشاده ، فاذا هو يسقط جانياً وتنهمر من عينيه الدموع وهو يتمتم بصلوات الأموات

وكان الجنود أرخوا من الحبال اربعمائة متر ولم يبق لديهم منها سوى عشرة أمتار ، فاذا بصوت ضعيف كأنه الهمس خارج من القاع يقول : أرخوا الحبال أيضاً

وأرخيت الأمتار الباقية وربط الحبل فى نتوء من الصخر ، فخرج من الهاوية صوت يقول : لا يمكننى أن أتقدم بعد ، إننى أسمع صراخاً

وعصفت الريح فى القاع فانقطع الصوت متلاشياً فى الهدير

وتقدم المارشال نای إلى الشفير ونادى بأعلى صوته : أيها الشجاع ! ماذا تسمع ؟

وساد السكوت ، والرعب يملأ النفوس ، ورفع الكاهن يده وبارك ، فانكشفت الرؤوس بخشوع وجثا الجنود مصلين وهم ينتظرون الصوت الأخير

وكان الشجاع المدلى بطرف الحبال لم يعد يقوى على رفع صوته لشدة البرد فى القاع العميق ، فدفع حشرجة أخيرة أوصلت هذه الكلمات إلى الشفير :

« أسمعهم ينادون : فليحى الأمبراطور . . . »

(ف . ف)

« كن ملاكا ... »

« بغير جناحين ؟ »

« وافتح البوابة »

« آه ... أفتح البوابة لتخرج السيارة »

« كيف عرفت ؟ »

« بذكائى ... ألم أقل لك إنى ذكى ؟ »

فرمت إلى نظرة من عين ساجيـة ثم قالت بابتسام تعالج أن تمنع أن ينقلب قهقهة عالية :

« كن ملاكا ... »

فوقع فى روعى من ابتسامتها أن فى الأمر مالا يدخل فى طوق الملائكة ، فزمت ولم أقل شيئاً ، وغالبت هى الضحك ثم قالت :

« وكن اليوم عمى »

« عم ... عم ... عمك ... يا خبر ... ! »

قالت : « اسمع ... إن لى صديقة تريد أن تخرج للقاء خطيبها ، ولـكن أباها لا يدعها تخرج وحدها ، وقد اتفقت معها على أن أمر بها لنذهب إلى السينما ... فهل فهمت لماذا أريد منك أن تكون اليوم عمى ؟ »

فقلت وأنا أتوجع : « فهمت أنى سأذهب إلى سينما لم تكن لى على بال ، وأنى سأمثل دوراً لا أرتاح ... من هذه الفتاة ؟ »

قالت — كأن هذا جواب السؤال — « جميلة جداً ولـكن احذر أن تغازلها »

فسألتها : « هل سأكون عمها هى أيضاً ؟ »

فضحكت وقالت : « ستكون عمنا اليوم ... واحذر أن تغلط »

« ولـكن سأغلط على التحقيق . إن العمومة حادث جديد فى حياتى ، فاذا اخطأت فى تمثيل الدور فلا عجب .... لم أتدرب عليـه قط .... هل قلت خطيبها ... أم حبيبها ؟ »

فقالت : « باسلام ... وما الفرق ... ؟ شىء غريب »

قلت : « صحيح لا فرق ... ولـكن عمك ؟ كيف يمكن ألا أغلط ... ثم إنها مهمة صعبة .... لا أشعر أنى سأرتاح إليها »

فقالت بدلال سلبنى كل قدرة على المقاومة : « كن ظريفاً ... كالعادة »

فضحكت مسروراً وقلت : هل يسمح لى أن أكون عماً ظريفاً .؟ »

قالت : « لا مانع . ولـكن احذر أن تغازلها »

قلت : « لقد شوقتنى إليها ... أغريتنى بها . فهل هى حقيقة ظريفة ؟... أعنى تستحق أن أرضى من أجلها وفى سبيلها أن أكون عما .؟ »

قالت : « جدا ... موت ... »

قلت : « ياحفيظ يارب ... والآن يابنت الأخ

العزيز — وإن كنت لا أعرف لك أخاً ولا أختاً — تفضلي وتخلي عن القيادة ... »

قالت : « لماذا ؟ ... إني أحب أن أقود السيارة ... هل أخطأت ؟ ... »

فتركت سؤالها بلا جواب ، وقلت بلهجة الأعمام : اسمعي الكلام يا بنت ... »

فضحكت ومالت بالسيارة الى الرصيف وتخلت لي عن مقعد السائق

وبلغنا البيت — لا أدري كيف ولا من أين فقد أطارت صوابي كثرة التعاريج وضيق الحارات ، ولكن البيت كان في فضاء رحيب وإن كان غير نظيف . ونزلت هي وبقيت أنا في السيارة . ومضت دقائق وأنا أفكر في عمها وفي الفتاة التي ستقول لي « يا عمي » ، وفي كيف أطيق الصبر على هـذه العمومة ، وإذا بفتى يقول لي : « اتفضل يا عمي » فصحت به — فقد فاجأني — « إيه ؟ .. » وكان مؤدباً مهذباً ووسيماً فسيماً فحدثت نفسي أن الفتاة التي ستدعوني عمها لا بد أن تكون جميلة — إذا اطرد القياس ، وتنهدت لأني سأكون عمها أيضاً ... وللعمومة قيودها ، ولا بد من الاحتشام ... فلاحول ولا قوة إلا بالله !

وقال الفتى : « تفضل حتى تلبس أختي »

فشكرته وأغلقت أبواب السيارة فقد كان الأطفال كثيرين في الحارة ، والأطفال ملاعين يعبثون بكل شيء كما كنت أفعل لما كنت طفلا ، ومشيت وراءه الى بيت حديث البناء ، فاستقبلني وراء الباب رجل وقور ظننته أول الأمر من السكان ، ولكنه مد يده الي وقال — كما قال الفتى — « تفضل » ، فقلت لنفسي : « إن تمثيل دور العم ينبغي أن يبدأ هنا ... حالا ... فان هـذا الرجل الطيب لا بد أن يكون هو الأب السني الذي مد الله في عمره الى زمن غير زمنـه ... » وقلت له : أرجو ألا تكون درجات السلم كثيرة ... فان السلالم تتعبني ... جداً ... »

فطمأنني الرجل وأكد لي أن الدرجات ثلاث فقط — ودار وعدّها — وأشار الى حجرة ، وأومأ الى أن أدخل ، فاذا فيها فتاتان — التي جعلتني عمها والأخرى التي سأكون عمها — أعني التي تريد أن تخرج لتلقى حبيبها أو خطيبها ... سيان كما قالت صاحبتي ... وحدقت في وجهها وأنا أسلم عليها وأطلت النظر اليها وأبقيت يدها في يدي ، وأنا أسألها عن صحتها ، وأثني على بيتها وأذم لها الطريق اليه

وكانت كفها رخصة ووجهها حلواً سمحاً وعيناها واسعتين ولونها صافياً وقدها رشيقاً

وجلست وجلس الرجل إلى جانبي يحييني ويرحب « بالعم » ، وجاءت خادمة « بالماشوراء » فاعتذرت وقلت إن معدتي لا تهضمها وإني أظن أني شـخت ، فقال الرجل : « العفو » وقالت صاحبتي : « صحيح .. معدته ضعيفة .. والطبيب ينهاه دائماً عن أكل شيء بين الوجبتين » ، وجاءت القهوة وناولوني فنجانة ، فصببت القهوة من الفنجانة في الطبق ، كما رأيت بعض الشيوخ يفعلون ، وكان هـذا أبرع ما وفقت إليه في أدائي لدور العم ؛ وكانت صاحبتي تغالب الضحك بجهد ، ثم تنظر إلى وتعض شفتيها محذرة من الغلط ، ثم سألني الرجل عن السينما التي اخترتها ، فقلت له : « ياسيدي لقد ألحت هذه البنت الملعونة (والعمومة تسمح بهذه اللعنات) أن آخذها إلى السينما مع صديقة لها فاعترضت لأني لا أكتمك أني لا أطمئن إلى الصداقة بين البنات ، ولكني أحمد الله .. حمدته وشكرته لما رأيتك .. شعرت بالاطمئنان فما يمكن أن تكون بنتك إلا فتاة مهذبة .. (وهنا شكرني

واستغفر الله كما لا أحتاج أن أقول) فرأيت أن أختار شريطاً غير غرامى . . آثرت شريطاً من الأشرطة البوليسية . . وهى كلام فارغ ، ولكنها خير وأسلم عاقبة من الأشرطه الغرامية ، وأظن أنك توافقنى . . أليس كذلك ؟ »

فوافق وشكر وأكد لى أنه تشرف بمعرفتى ، ولا أكتم القارىء أنى خجلت منه فى هذه اللحظة وأن نفسى حدثتنى أن أصارحه بالحقيقة من أولها إلى آخرها ، ولم يصدنى عن ذلك إلا التحرج من الزج بنفسى فى مأزق آخر لا يسهل الخروج منه ، وإذا صارحته بأنى لست عماً ولا قريباً فماذا يكون موقفى . . بل ماذا يكون موقف صاحبتى التى جاءت بى إلى هنا وادعت أنى عمها . . ثم إنى أريد أن أرى هذا الحبيب أو الخطيب — سيان — الذى تريد أن تلقاه وتحتال هى وصاحبتها على هذا النحو المحرج — لى — لتلقاه ؛ وقد أستطيع أن أصنع خيراً إذا رأيته فان لى لفراسة

وأخيراً نهضنا ، وركب معنا الفتى — أعنى أخاها — فاحتفظت أمامه بمقتضيات العمومة على فرط ثقلها حتى تركنا حيث يريد ، وكانت الفتاتان على القصد الخلق ، فلما نزل الفتى وأمنت أن يسمعنى قلت لها وأنا أمضى بالسيارة على غير هدى : « هل أتقنت دور العم ؟ » ، فضحكت الفتاتان ، فخيل إلى لحظة أن الفتاة التى جئنا بها تعرف أنى لست عماً ولا ابن عم ولكن صاحبتى قالت شيئاً فهمت منه أنها تريد أن أمضى فى تمثيل الدور فسخطت وقلت : « والآن إلى أين بنا » ، فقالت الفتاة الجديدة : « إلى . . . من فضلك . . . أعنى إذا سمحت » ، وقالت الأخرى — صاحبتى — « بالطبع . . . إن عمى سبور . . . » ، وضحكتا من هذا العم « الاسبور » ، ومن حقهما أن يضحكا . .

ودرنا نبحث عن بيت الخطيب — أو هكذا ظننت ، ولكن الحقيقة أننا مررنا به ، وأن الفتاة رأته فى الشرفة غير أنها خجلت أن تدعو عمها إلى الوقوف وتنزل ، وأحسست أن جو السيارة لا يخلو من ركود ، فوقفت فى بعض الطريق واتجهت إلى الفتاة وسألتها : « هل عرفت البيت ؟ . وهل رأيت فيه صاحبك ؟ » فهزت رأسها أن نعم واضطرم وجهها — حياء على ما أظن — وتولت صاحبتى الكلام والايضاح ، فقلت لها : « حسن . ابقيا أنتما هنا وسأنزل إليه »

ولما وقعت عينى عليه وهو واقف فى الشرفة ومعه أخته أشرت إليه أن ينزل فلم يفهم ، فصحت به : « تعال . . . أيوه انت . . . »

وسلم مرتبكا وقال : « أفندم »

فقلت بعنف : « لا أفندم ولا يحزنون . . . كيف تكلف الفتاة أن تقطع إليك الكرة الأرضية ولا تحشم نفسك عناء السعى اليها ؟ . . . . . ثم إن أباها لا يمكن أن يقبل »

فقاطعنى وقال بلهفة : « هل يعرف ! . . »

قلت : « اسمع . . . هذه العلاقة يجب أن تكون رسمية علنية وإلا فالواجب أن تنقطع . . . الآن »

وقال بصوت خافت : « بالطبع »

فالتفت اليه وقلت بصرامة : « بالطبع ماذا ؟ . . . تقطع ؟ . . . أو تستمر على وجه القبول ؟ »

قال : « تستمر بالطبع . . . إنى أريد أن أتزوجها »

فوقفت وسألته : « وماذا يمنعك ؟ . إن الزواج ليس من وسائله هذه المقابلات السرية التى لا يعلم بها والدها . . . والآن تعال وأطمئن . . . »

ومضيت به الى السيارة وكان يمشى مطأطئ

الرأس . وأحسب أنى نغصت عليه هذا اللقاء ، ولكنى لم أكن أستطيع غير ذلك فقد كانت صورة الأب الوقور الطيب الذى لا تخالجه ريبة ماثلة أمام عينى ، وقد ترك لى ابنته مطمئناً الى ومعتمداً بعد الله على . ولو كنت لم أدخل بيته ولم أر وجهه ولم يأتمنى على فتاته لما أحسست أن على تبعة . وشق على أن يكلفها هذا الفتى أن تذهب اليه فى آخر الدنيا ، وهو قاعد فى بيته لا يتحرك ولا يسعى ، ولا يبالى ما تتحمل الفتاة فى سبيله من عناء وما تغريها به الرغبة فى لقائه من احتيال وكذب وخداع . فنويت أن أحسم الأمر

وهم بالركوب فجذبته من كتفه ، ونأيت به قليلاً وسألته : « الى أين أولاً ؟ ... قل لى ماذا تنوى أن تصنع ؟ إنى لا أريد أن أضايقك ولكن هذه الفتاة الساذجة فى ذمتى فهل تستطيع أن تكون رجلا ؟ »

فانقد وجهه وتلعثم ثم استطاع بجهد أن يقول لى إنه رجل شريف وإنه لا يبغى بها سوءا وسألنى وقد وجد لسانه : « هل حضرتك ... »

فقاطعته قائلا : « لا يعنيك من أنا ... تعال ... يكفيك أنى قد وثقت بك ... تعال »

فسره هذا . وهل هو إلا طفل ؟ . . وإنى لأكون حماراً غبيا بليداً إذا لم أستطع أن أستولى على زمامه ... والتفت إلى صاحبتى ونحن راجعون بالسيارة وقلت : « وأنت أيضاً ستطيعين عمك » فمالت على وقالت : « إيه ؟ » قلت : « لا شىء ... لقد شئت أن أكون لك اليوم عماً . فاستنكرت أن أكونه فى أول الأمر ولكن الدور حلا لى ... أعجبنى . . . فأنا الآن عم حقيق . . . سأظل عماً ظريفاً ... ولكنى عم على كل حال فلا تنسى هذا »

فسألتنى بصوت خفيض : « ماذا جرى ؟ طمئنى ... »

قلت : « لا شىء ... اطمئنى ... ولكن أطيعينى بلا سؤال أو تردد »

وأنا رجل لا أحب التلكؤ ولا أطيق البلادة . ولا صبر لى على التلوى واللف والدوران . وإيمانى عظيم بأن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين . والذى يصنعه غيرى فى يوم أصنعه أنا فى لحظة لأن أعصابى لا تحتمل البطء . لذلك مضيت إلى بيت الرجل وكانت كل من الفتاتين تسألنى : « إلى أين من هنا ؟ » وكانتا أول الأمر تتعجبان وتضحكان ثم وجمتا لما دنوت من البيت وانتفى كل شك فى أنى أقصد إليه

وقلت للشاب وأنا أنزل وأجره : « تعال أعرفك بأبيها ، فما أستطيع أن أستصحبك معها بغير ذلك ... أعنى بغير اذنه ... أتفهم ؟ »

وكانت لهجتى صارمة أو قل انها كانت حازمة وان خلت من العنف ، فسار معى . وجاء الرجل مستغرباً عودتنا قبل موعد انتهاء السينما فقلت له بلا تمهيد : « هذا الشاب يريد أن يكون نسيبك ... يحب بنتك هذه ... وأنا أعلم أن هذه مفاجأة ... ولكنى لا أدعوك الى تزويجه الآن ... إنما رأيت من واجبى أن أخبرك ... وسيعطيك اسمه وعنوانه ويحدثك عن نفسه وأهله وأصله وفصله فيما بعد ... فاذا وافقت ورأيته أهلا لذلك فهنيئاً لك وله وللبنت والافارمه ... وقد أخبرتك بهذا ... فاجأتك به لأنى لا أستطيع أن أدعه يصحبنا إلى السينما بغير علمك وإذنك ... فهل تسمح له بذلك ؟ »

وتشهدت لما سمعت الرجل — هذا الرجل الوقور الطيب — يأذن لى فى ذلك ويشكرنى أيضاً ... تالله ما أطيبه ! ...

وعدنا الى السيارة فركبناها فى صمت فقد بهت الشاب واستعصى عليه الكلام . وله العذر .

ودخلنا السينما فجلست بين الفتاتين وجلس الشاب على يمين صاحبته التى جعلتها خطيبته برضاه أو على الرغم منه ، لا أدرى ، فعلم ذلك عند الله ؛ وكانت الفتاتان لا تعرفان شيئاً مما حدث لأنهما لم يدخلا البيت معنا ولم نقل لهما شيئاً فى السيارة فلت على صاحبتى وقلت لها : « الآن تستطيعين أن تهنئى ... ما اسمها ؟ . . لقد صارت خطيبته حقاً وصدقاً ... لا كذباً يا ملعونة ... »

فراحت تثرثر وتسألنى : «ايه ... ماذا تقول... ماذا حدث ... كيف كان هذا ... ماذا صنعت حين دخلت البيت ... ؟ »

فوضعت كفى على فمها . وكيف بالله كنت أستطيع أن أسد هذا الطوفان من الأسئلة بغير ذلك ؟ وقد وقف الطوفان ، ولكن اللعينة عضتنى فكدت أصرخ لولا أننا فى سينما . وتصببت وتجلدت واتجهت الى الشاب وقلت له وأنا أمد كفى المعضوضة : « بسها ... إذا كنت مسرورا » فباسها — بطنا وظهرا — مرة وثانية وثالثة . فاستحييت وانتزعتها منه ، وحولت وجهى الى صاحبتى وذهبت أحدثها بما كان ، وإنى لكذلك وإذا بالفتاة الأخرى تجذبنى اليها وتدير وجهى الى وجهها وتطوقنى بذراعيها وتقبل خدى ... أى والله ولا تستحى ... فدهشت ونظرت اليها ... ثم حولت وجهى عنها . فقد كانت الدموع على خديها

وأعترف أنى لم أر شيئا من الشريط ... نعم نظرت ولكنى لم أفهم ... لم يكن بالى الى ما أرى وكنت أفكر فى هذه الفتاة وفى مصيرها مع فتاها لو لم يلهمنى الله أن أكون مجنوناً وأن أصنع ما صنعت وهل يفعل هذا سوى مجنون ؟ ولكنه جنون أثمر خيرا

وقالت الخطيبة ونحن خارجون : « عمى ... لاتتركنا »

فتنابيت وقلت : « هل سأظل عما لك أيضاً الى الأبد ... »

فجذبت ذراعى وقالت بلهجة المستعطف : « لا تتركنا ... فاهم »

قلت : « سمعت . وفهمت . وأطعت . »

قالت صاحبتى : « أما إنك لعم ... »

فلم أقل شيئا وفتحت أبواب السيارة وأشرت اليهم بكلتا يدى وقلت : « بيتك . بيتك . بيتك » كما يقال للدجاج

وتعشينا جميعا فى بيت الرجل الطيب . ولكنى قبل أن أتناول شيئا من طعامه قلت له :

« سأقول لك شيئا . لست عما لهذه الفتاة . هى صديقة وجارة . أعرف أهلها جميعا من زمان طويل . وقد ألفت أن تدعونى عمها . حكم العادة فقط . وأنا أكره هذه العمومة ، ولذلك أخلعها أمامك ، وأرجو أن تعيننى على التخلص منها . فما قولك ... ؟ »

وكانت يداى على ركبتى فى انتظار حكمه ، فأحسست راحتين عليهما فالتفت فاذا الفتاتان تنظران إلىّ بابتسامة الرضى والسرور ، فرددت عينى الى الرجل استعجله الحكم فقال : « تفضل ياسيدى تفضل »

فتشهدت ورفعت يدى الى المائدة لآكل وإذا بالخطيبة تنهض وتميل على عنقى وتقبلنى

كلا ... إنها فتاة لا تستحى ... أبدا ... أبدا

ابراهيم عبد القادر المازنى

كان ذلك فى بكرة الصباح

و « فلاديمير كلاديتوف » فتى وسيم ، مديد القامة ، فى الثانية والعشرين من عمره ، كالغلمان مظهراً ، له وجه مليح وشعر وحف أشقر ، يرتدى حلة الضباط ، وينتعل نعال الركوب الطويلة ؛ وكان واقفاً فى مرج ممشوشب كساه متساقط الجليد ، وهو شاخص الى ضابط آخر ، وذلك الآخر رجل أسبل الشاربين ، بائن الطول ، محمر الوجه ، وكان مواجهاً له على مسافة ثلاثين قدماً وهو يرفع على مهل يده حاملة فى قبضتها مسدساً يسدده الى فلاديمير

وكان فلاديمير واضعاً ذراعيه متشابكين على صدره ، حاملاً كذلك فى إحدى كفيه مسدساً ، وهو ينتظر — انتظار من لا يبالى — طلقة النار يطلقها عليه خصمه . وكان وجهه الناضر الصبيح وإن غشيته مسحة من شحوب تتوقد الشجاعة فيه ويعلوه ابتسام المستخف . وكان موقفه الخطر ، وما يبدو على غريمه من تصميم مبرم لا رحمة فيه ، وشدة الانتباه من جانب الشهود الواقفين صفاً واحداً بلا حس ولا حراك ، كل هذه مجتمعة جعلتها لحظة بالغة الهول ، غامضة الكنه ، رهيبة الوقع . إنها مسألة شرف يجب هنا القضاء فيها .

وكان الجميع شاعرين بجلالها . وعلى قدر بعدهم عن إدراك ما هم صانعون كانت اللحظة تزداد رهبة على رهبة

وانطلقت رصاصة . وسرت فى فرائص الجميع رعدة . وأرخى فلاديمير ذراعيه ، وثنى ركبتيه ، وخر فى مكانه . وهو على الثلج لقىً ، وقد نفذت الرصاصة فى رأسه ، منطرح ، وذراعاه متباعدتان ، وشعره ووجهه ومتوسد الثلج تحت رأسه ، كأنها مضرجة بالدم . وهرول إليه الشهود فاحتملوه . وفحصه الطبيب فقرر وفاته . وانحلت مشكلة الشرف وانفض أمرها . ولم يبق إلا إبلاغ الخبر الى الفرقة التى ينتمى الضابط ، وإبلاغ النعى بقدر ما يمكن من التلطف والتحرز الى الأم التى أصبحت من بعده وحيدة فى الدنيا . فان الفتى القتيل وحيدها . وهى لم تخطر قبل المبارزة فى بال أحد . أما الآن فالكل يفكرون ويطيلون التفكير . فالكل يعرفونها ويحبونها ويدركون أنه لا بد من التقديم لهذا النبأ الفظيع عندها والتمهيد قبل إلقائه والتدرج فى مساقه . وفى النهاية وقع الاختيار على « إيفان جوليوبنكو » بوصف أنه أصلحهم جميعاً

لتبليغ الخبر للأم وتهوين الخطب جهد المستطاع

* * *

كانت « بلاجيا بتروفنا » قد استيقظت ساعتئذ من نومها . وكانت تجهز لنفسها شاى الصباح ، حين دخل الى غرفتها « إيفان جوليوبنكو » مكتئباً مرتبكا

وهبت السيدة العجوز لملاقاة ضيفها قائلة : « لقد جئت فى الأوان والشاى مجهز يا إيفان ! » ثم أردفت : « إنك قادم لا محالة لترى ڤلاديمير ! »

فغمغم « جوليوبنكو » مجفلاً : « لا ... إنما كنت ماراً ... »

— أنت لا بد عاذره ، إنه لا يزال ناعماً لقد قضى سحابة الليلة الماضية يذرع غرفته جيئة وذهابا . وقد أوصيت الخادمة ألا توقظه ، فان اليوم عطلة بمناسبة العيد . ولكن لعلك آت فى مهمة مستعجلة ؟

— كلا ، وإنما عرجت عليكم فى مرورى لحظة ...

— إن شئت رؤيته أمرت بإيقاظه

— كلا ، كلا لا تكلفى نفسك

ولكن بيلاجيا بتروفنا كانت معتقدة أنه قادم ليرى ابنها فى أمر من الأمور . فخرجت وهى تتمتم بينها وبين نفسها

وجعل « جوليو بنكو » يذهب ويجىء مضطرباً ، ويقلب كفيه ، وهو لا يدرى كيف يبلغها الخبر الفظيع . لقد أزفت اللحظة الحاسمة ، ولكنه لم يعد مالكا لنفسه بل ملكه الروع فهو يلعن الحظ الذى ورّطه شر مورّط فى الأمر كله

واستهلت « بيلاجيا بتروفنا » وهى تدخل الغرفة مخاطبة زائرها سليمة السريرة طيبة النحيزة :

— وبعد ! فكيف لامرئ أن يثق فيكم أيها الشبان ؟ هأنذا أحاذر أن أحدث أدنى حس للأقداح وأطباقها ، واستسمحك فى عدم إيقاظ إبنى ، فاذا هو قد مضى منذ برهة طويلة ولم يخلف أثراً ! ولكن ، لم لا تجلس وتشرب قدحاً من الشاى ؟ لقد أهملتناشر الاهمال فى هذه الأيام الأخيرة

وابتسمت كأنما تبتسم عن سرور مخامر ، وزادت بصوت خافت :

— كانت الأخبار كثيرة عندنا فى تلك الآونة ، وما أحسب أن ڤلاديمير استطاع كتمانها . ولا بد أنه أفضى بها اليك كافة بحذافيرها ليومنا هذا . إن ابنى ڤلاديمير مستقيم الطبع مفتوح القلب . والليلة البارحة دارت بخلدى الظنون مع مابها من إثم ! إذا كان ڤلاديمير إبنى يذرع الغرفة طيلة ليلته فمعناه أنه يفكر فى « لينوتشكا » صباً بها ، مشوقا اليها . وإن من مألوف عادته وديدنه إذا ذرع الغرفة الليل طوله أن يمضى لا محالة فى الغداة . آه يا إيفان لا أتمنى شيئاً على الله إلا أن يرزقنى من لدنه هذه الفرحة يقر بها عينى فى هرمى . وما ذا تطلبه امرأة عجوز أكثر من هـذا ؟ وليس لى غيرها أمنية وبشرى ؛ وإنه ليخيل الىّ أن ليس ثمة سؤال أرتجيه بعد إذ يتزوج ڤلاديمير ولينوتشكا . إن فى ذلك لغبطة لى وأيما غبطة ، وسعادة مابعدها سعادة . ومالى سوى ڤلاديمير من حاجة . وليس شىء أحب الىّ من هناءته

وكان من شدة تأثر السيدة العجوز أن جعلت تكفكف الدمع قد اغرورقت به عيناها

واسترسلت تتحدث إليه : « أو تذكر ؟

لم تكن الأمور فى البداية جارية على أحسن حال ، سواء فيما بينهما أو فيما يتعلق بالمال . فأنتم معشر الشبان الضباط غير مسموح لكم حتى الزواج من غير مال مرصود . حسن ، لقد تم الآن إعداد كل شىء : حصلت على الخمسة الآلاف روبية اللازمة لفلاديمير . وفى الامكان ذهابهما الى المحراب لعقد الزواج غداة غد . أجل ، وقد كتبت لى ليونتشكا خطاباً ما ألطفه . إن قلبى جذلان مبتهج

وأخرجت « بيلاجيا بتروفنا » — وهى مسترسلة فى كلامها — خطاباً من جيبها ، وأظهرته لجوليو بنكو ثم أعادته : « انها لفتاة محبية ! وناهيك من طيبة نفسها !

وجلس إيفان جوليو بنكو ينصت إلى كلامها وهو على مثل الجمر . وقد أراد أن يقطع عليها هذا الفيض من الأحاديث ، ويقول لها إن كل شىء قد انتهى ، وأن فلاديمير ابنها مات وأصبح فى خبر كان ، وأنه بعد ساعة واحدة لن يبقى لها شىء من هذه الآمال الزاهية . ولكنه أنصت إليها والتزم الصمت ، ونظر الى وجهها الطيب اللطيف فأخذ منه الاشفاق عليها وإذا حركة تشنج تأخذ بكظمه

وأخيراً سألته السيدة العجوز : « ولكن ، مالى أراك اليوم متجهما ؟ ما بالك ، إن وجهك يبدو مكفهرا كامداً كالليل !

وود إيفان لو يقول : « نعم ! وسيكون وجهك كذلك حين أخبرك الخبر ! » ولكنه لم يبلغها شيئاً ، واستعاض من ذلك بأن أشاح بوجهه وجعل يفتل شاربيه

ولم تلحظ بيلاجيا بتروفنا شيئاً ، واستطردت وهى فى أفكارها مستغرقة :

« إن لك عندى تحية ، لقد كتبت ليونتشكا فيما كتبته لى توصينى بأن أبلغ تحياتها إلى إيفان ، وأن أرجوه المجىء مع فلاديمير لزيارتها ؛ فأنت ترى بنفسك يا إيفان مودتها لك ! لا وايم الله ، يظهر أننى لا أستطيع الاستئثار بهذا وحدى . لابد من إطلاعك على الخطاب ، ولتنظرن أنت لنفسك مبلغ ما فيه من محبة وعذوبة

وعاودت بيلاجيا بتروفنا البحث عن حزمة الخطابات فى جيبها وسحبت منها طرساً رقيق الورق مقرمط الكتابة ، ونشرته أمام إيفان جوليو بنك وقد زاد وجهه اكفهراراً ، وحاول إيفان أن يدفع عنه القرطاس الممدود ، ولكن بيلاجيا بتروفنا كانت قد أنشأت تقرؤه :

(عزيزتى بيلاجيا بتروفنا — متى يئين الأوان الذى أخاطبك فيه بغير هذا فأدعوك بيا أمى العزيزة المحببة ! إننى أرقب ذلك اليوم متلهفة ، وإن أملى لعظيم بقرب حلوله حتى لست أحب دعوتك من الآن باسم غير يا أمى —)

ورفعت بيلاجيا بتروفنا رأسها ، وتوقفت عن التلاوة ، ونظرت إلى جوليو بنكا بعينين تملؤهما العبرات

وقالت : « أترى يا إيفان ! » . ولكنها رأت جوليو بنكو يعض شاربيه بناجذيه ، وأن عينيه هو أيضاً مغرورقتان . فقامت وأقبلت عليه ، ووضعت يدها الرحيمة على شعره ، وقبّلته فى هينة فوق جبينه ، هامسة من شدة التأثر : « شكرا يا إيفان ! لقد كنت دائما أعتقد أنك وفلاديمير أقرب الى الأخوين الشقيقين منكما الى مجرد صديقين . لا تؤاخذانى . إننى سعيدة أيما سعادة . والحمد لله سبحانه ! »

وفاضت الدموع على خديها . واشتد بإيفان جوليو بتكو اضطرابه وارتباكه ، ولم يسعه إلا أن يأخذ بين راحتيه يدها الباردة المعروقة ويكب عليها تقبيلاً . وكان مختنقا بالعبرات فلم يستطع أن يلفظ حرفا . ولكن هذه الفورة من الحب الأموى أشعرته بالتبكيت الشديد ، حتى لقد آثر أن لو كان هو الصريع على الساحة وقد نفذت الرصاصة فى دماغه ، فذاك أهون عليه من سماع عبارات الحمد له وامتداح صداقته وخالص أخوته تجرى على لسان هذه المرأة وهى بعد هنيهة قصيرة سيتضح لها حقيقة الواقع وجلية الأمر . وماذا ترتأى فيه وقتئذ ؟ ألم يقف — وهو الصديق وفى حكم الشقيق — ساكنا جامداً حين كان المدس مسددا الى فلاديمير ؟ أليس هذا الشقيق نفسه هو الذى قاس المسافة بين الغريمين ، وهو الذى حشا المدسين ؟ كل هذا صنعه بنفسه ، وقد صنعه وهو يعى ما يصنع ؛ وهاك الصديق بل الشقيق يجلس الآن صامتاً ولا يتقدم حتى هنا للقيام بواجبه

إنه جزع خائف . يحتقر فى هذه اللحظة نفسه دون أن يستطيع مغالبتها ليقول ولو كلمة واحدة . وإن إحساساً غريباً بالتناقض يحرج صدره ويزهق روحه ، فهوفى كرب واختناق . والوقت يمر سراعا ؛ إنه يعلم بمروره ، وكلما زاد به علما وهت عزيمته ولم يقو على حرمان بيلاجيا بتروفنا مما بقى لها من لحظات سعيدة أخيرة . فماذا هو قائل لها ؟ وكيف يقدم للخبر ويهيؤها لسماعه ؟ لقد حار إيفان جوليا بتكو فى أمره وأسقط فى يده

لقد انفسح له الوقت هنا ليلمن فى سره جميع المبارزات وجميع المشاحنات وكل ضرب من ضروب البطولة وسائر ما يسمونه مسائل الشرف على اختلاف ألوانها . وأخيراً هب من مجلسه وهو موطن النفس على التصريح أو الفرار . وأقبل ، فتناول — معجلا ومن غير كلام — يد بيلاجيا بتروفنا وانحنى يلثمها ، فأخفى بذلك وجهه عنها ، وإذا سيل من الدمع السخين المدرار ينهمر فوقها . ثم انتزع نفسه وانطلق لا يلوى على شىء ، وتناول عند الباب معطفه الكثيف وخرج من البيت دون أن يقول كلمة

وتطلعت بيلاجيا بتروفنا وراءه مندهشة ، وقالت فى نفسها : « لا شك أنه أيضاً عاشق ، مسكين ، كان الله فى عونه . إيه ! إنها لوعة الصبا تلوعهم — ومن بعدها سعادة »

ثم سرعان ما نسيته ، وغاب أمره عن بالها ، واستغرقت العجوز فى أحلامها بالسعادة تتراءى لها محققة كاملة !

عبد الرحمن صدقى

استدراك

جاء فى (مذكرات نائب فى الأرياف) المنشورة فى هذا العدد أن مدة المعارضة أربعة أيام والصواب ثلاثة

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

من القاتل

لأندريه وارنود

بقلم الدكتور محمد الرافعي

أصبح الناس فى قرية بوڤلييه الصغيرة وعليهم الضباب ومعه الريح الباردة تسفع الوجوه ، وبين الضباب والريح يطير الخبر المزعج : أن قتل مسيو ڤينيه برصاصة وقعت فى عنقه !

وعثروا على جثته فى أرباض القرية ، بين أسوار الحدائق على مقربة من النهر . وكانت العاصفة والمطر وظلام الليل ستر على القتل والقاتل ، فلم ير أحد ولم يسمع

ومسيو ڤينيه هذا عملاق معصوب الخلق ، مفتول العضل ، غليظ الألواح ، طويل عريض قد ناهز الأربعين ، يعيش فى سعة من غلة أرضه ويلهو أكثر وقته بالصيد ، وفى سائر الوقت يختلف إلى الأندية والحانات

ويعرفه أهل قريته فاجراً صاحب نساء وغزل ، فحديثه وحديثهن على كل شفة ؛ ولم يلفه الليل إلا على امرأة يخادنها أو يحتظيها ؛ وهن اليه أشد ميلاً ، فله المال وفيه القوة ، وإلى ذلك ظرف وجمال وصباية ورقة حديث

فمن الذى قتل مسو ڤينيه ؟

لعلها واحدة من صواحبه غارت عليه أو نقمت منه أو نكثت عهدها ؛ أو لا فمشيق واحدة منهن أراد أن يزيحه من طريقه ..

عرفت كل هذه التفاصيل من الخادم وأنا أتناول فطورى ، إذ كنت فى فندق المحطة وقد بتُّ فيه متخلفاً أنتظر القطار المحلى الذى يبرح فى الصباح قرية بوڤلييه

ودخل أحد الشرطة إلى الفندق فجعل يتحرى أسماء المسافرين الذين وصلوا بالأمس ؛ ثم تقدم إلى فى شأنى وشأن أوراقى ؛ ثم سألنى كيف قضيت الوقت منذ طرأت على هذه الناحية ؛ وبعد أن تثبت من قولى حيانى ومضى لسبيله .

فقلت للخادم :

— ما أحسبه يشق عليه أن يضع يده على القاتل والبلدة من صغرها تكاد تسلمه لمن يبحث عنه . .

قال : لا يكون هذا رأيك يا سيدى ، فالقرية يمر بها غرباء كثيرون . وهب القاتل من أهلها فلا ريب أنه قد تدبر واحتاط وفكر وقدر ، وما يكون مثل هذا المجرم الذى يقتل هذا العملاق

إلا عارماً شديد البأس يرهبه الناس فلن يظهر اسمه على لسان أحد . وأى الناس يريد لنفسه القتل؟

وخرجت أمرّ فى الجموع المضطربة أذهب هنا وهناك إلى أن يحين الوقت ، ثم توجهت إلى المحطة وجعلت أتصفح الوجوه أبحث عن شخص جمعنى به القطار أمس وقضينا معاً شطراً من الليل . وكان هو أيضاً قد طرأ على البلدة وتخلف ينتظر القطار المحلى ، فتواعدنا أن نلتقى فى المحطة

* * *

وكان صاحبى هذا رجلاً قد علاه المشيب فابيض شعره الخشن ، وسطع بياضه على وجه قد لوحته الشمس فاسمر واحمر . وكان قصير القامة صلب العضل ، قوياً مجتمعاً ، عصبى المزاج يطير من عينيه مثل الشرر إذا حدّق إليك ..

ولم يكن حديثنا فى القطار إلا تحية وردّها ؛ وقد تخلف مثلى فى بوفيه ، فما إن وطئت قدماه أرض الرصيف حتى أسرع إلى عربة الأمتعة ومعه الحمالون ينزلون متاعه وأثقاله وهو شىء كثير عجيب مختلف ، يجمع أنواعاً عدة من فسائل شجر الورد إلى صناديق ضخمة تضم ألواحاً من المرمر المصقول أُجيدَ نحتها فى باريس

ودنوت من الرجل ، وكان القطار يهم أن يتحرك ولما يفرغ الحمالون من عملهم ، فألقيت حقيبتى وعملت معهم فى إنزال ما بقى ، فشكرنى ودعانى للمشاء معه

وتلاقينا فى مطعم اشتهر بإجادة أطعمته فما يفوت الغريب أن يختلف إليه . وجلسنا لطعامنا وبدأ يحدثنى حديثه ، فكانت قصة من أعجب القصص ..

* * *

تزوج شمبزاك هذا وهو فى الأربعين من عمره بفتاة تقارب العشرين . وكان مهندساً فى شركة كبيرة فأوفدته إلى بلدة بكسيول القريبة من هنا فى عمل من أعمالها يستغرق سنين عدداً . فلما جاء إلى هذه البلدة أخذ بجمال طبيعتها وسحر مناظرها فابتاع منزلاً ريفياً سكن فيه مع زوجته الجميلة ، تحوطهما سعادة الحب ؛ أو لعله كان يتوهم ذلك ..

وتصرمت الشهور وتبعتها السنون وهو ناعم بحياته الجديدة ، مسحور بالجمالين فى الطبيعة وفى زوجته « مشلين » . وكان واثقاً من حبها مطمئناً الى وفائها ، حتى ألقى اليه ذات يوم كتاب غفل من التوقيع ينبهه فيه كاتبه الى أن يفتح عينه على زوجته ... فسخر من الكاتب وكتابه ، وانطلق الى داره وما يشك أنه سيطالع امرأته ببحث يضحكها ويضحكه

وخطر له وهو يفتح باب الحديقة أن يحكم الدعابة فيجعلها رواية ذات فصلين ؛ فاذا انفجر من الغيظ فى الفصل الأول وهو يعتقد الريبة ، انفجر من الضحك فى الفصل الثانى وهو يطمئن الى الحب ... فلبس وجه الغيظ والحنق ودخل على زوجته دخول الموتور فى عرضه وكرامته وقال لها :

أما الآن فقد برح الخفاء وانكشف المستور وتحقق الظن ونطقت الريبة ... تباً لك من خائنة غادرة تبتذل عرضها وتخون زوجها . هلمى فاسألى الله أن يرحمك إن كان يرحم الفاجرة ؛ فانى قاتلك لا محالة

* * *

وتابع الرجل حديثه لى فقال :

لم أكن — علم الله — أريد غير المزح والدعابة وما كان يخطر لى قط أن يحدث ما حدث ... فما سمعت المرأة ما سمعت ورأت ما رأت ، حتى انقلبت عيناها وزاغ بصرها وانكفأ لونها وتهارب دمها ، وارتعدت واضطربت ومادت ووقعت باكية على قدمى ... :

فوقفت مشدوهاً لا أكاد أصدق ما رأيت لولا أني أرى ... ؛ ثم أعماني الحب وأشفقت عليها وظننت ما بها مما يحدثه الرعب ، وقلت : لعلها حسبتني قد جننت ... فضممتها الى صدري وقبلتها وجعلت أهدئ روعها وأعتذر إليها حتى سكن ما بها

ولما طابت نفسها انفجرت ضاحكا وقلت لها : هذا هو الفصل الثاني من الرواية الهزلية ... ثم حدثتها بالخبر وأقرأتها الكتاب ، فطوقتني بذراعيها وتعلقت بي وقالت وهي تقبلني :

— ما كان أبعدك من الرحمة ! لقد حسبتك جننت ... ، فلأن أظن بك الجنون أقرب من أن أظن أنك ترتاب في

* * *

ومرت الأيام وكنت أشهد حبها يتضاعف كما تكفر التائبة عن خطيئة تريد أن تمحوها من ذاكرة محبها ... وحملت ذلك الكتاب على محمله من حسن الظن ، فقلت : لعله من ماجن يعبث بي ، أوعدو يكيد لي ، أو عامل طردته فيريد أن ينتقم مني بتخريب سعادتي ... غير أني لم أطمئن الى ذلك وساورتني الظنون الأخرى ، ولم أر من الحكمة أن تعلم زوجتي بما تخالجني من الشك ؛ فجعلت أتجسس عليها وأستقصي أخبار من تتصل بهم ؛ حتى كان يوم تلقيت فيه رسالة أخرى لا توقيع عليها ، وهذا نصها :

« إن زوجتك على موعد من كبير المهندسين ، وأنت تعرف أنه السيد « ڤارنك » ، وستوافيه اليوم في الساعة الثالثة على قمة فيزون بفندق الخنزير البري حيث يلتق العشاق ... »

فما قرأت هذه الرسالة حتى دارت بي الأرض وغلى دمي وجن جنوني فهممت أن أذهب الى دار المهندس فأبطش به . ولكني تماسكت وجعلت أتدبر: إن قمة فيزون بعيدة لا يمكن بلوغها إلا بالسيارة ؛ فان كان الخبر صحيحاً فعادة زوجتي كلما أرادت السيارة أن تسألني هل أنا في حاجة إليها ؟

إذن فلأنتظر

وجلست معها للغداء وكأن لم يكن بي شيء ؛ وأشرفنا على الفراغ من الأكل ولم تسألني فهدأت وكدت أطير فرحاً ، وجعلت في نفسي ألعن النميمة وأهلها ، وأنا في ذلك إذ قالت متلئين في تردد :

— أتحتاج الى السيارة اليوم يا عزيزي ؟ فاني أريدها لنزهة قصيرة في الجبل

وكان كلامها كالصاعقة انقضت علي ، فاحتبس لساني ورأيتني أختنق ؛ غير أني تماسكت مرة أخرى لأنتهي الى النهاية . فقلت لها وأنا أنتزع الكلام انتزاعا :

— ألا ترين أن الجو اليوم ليس جو النزهة في الجبل ؟

فعبست وقالت بجفاء :

— ولكني أريد التنزه اليوم

وكنت مستطيعا أن أمنعها إذا زعمت لها أني في حاجة الى السيارة ، أو قلت إنها معطلة ، أو اعتللت بعلة ما . . . ولكن قلبي كاد يتمزق بالشك ، وأردت اليقين واليقينُ في خروجها ، فتركتها لشأنها وقلت خذيها فلست في حاجة اليها

وأسرعتُ الى محل العمل فسألت عن ڤارنك فقيل لي إنه قد خرج في سيارة وان يعود بعد ظهر اليوم ... فطار لبي وتحققت من مصيبتي ، ولم أملك الصبر حتى ألتمس سيارة تحملني وتقذف بي على الخائن والخائنة ، فعمدت الى « موتوسكل » كان لأحد العمال فطرت به

فلما وافيت الفندق رميته ومضيت حذرا ألوذ بكل ما يواريني . وكنت الى تلك اللحظة أراجع

نفسي وأزعم أن زوجتي قد ذهبت الى جهة أخرى وأني لن أجد أحدا ، وسأجلس في الفندق لكأس أو كأسين ثم أعود الى داري مطمئنا فأجلس عند قدمي زوجتي وأعتذر اليها كما اعتذرت في المرة الأولى...

وما بلغت هذه الخاطرة من تفكيري حتى كنت بحذاء الفندق وكأنه يقول لي أنظر أنظر ...

أبصرت زوجتي ، وقد جلست الى ڤارنك وأمامها الشراب ... فانقضضت عليها كالموت . أما هي فوقعت مغشياً عليها ، وأما هو فانتهض وقد اكفهر وجهه وتلعثم لسانه وأخذ يتمتم ، يحاول أن يتكلم ... فلم أمهله ولم أسمع له ، بل صفعته على وجهه ثم انطلقت أعدو كالمجنون وطرت بالموتوسكل

* * *

كان ذلك قبل الحرب العظمى ، وكانت العادات يومئذ غير العادات ، والشرف غير الشرف ، فما وصلت البلدة حتى التمست زميلين لي فطلبت اليهما أن يكونا شاهدي في مبارزة ڤارنك . وأجمعت على قتله إذ كان حذقا في الضرب بالسيف لا يقل عن مهارتي في الرمي بالرصاص

ثم أقمت في محل عملي وأبيت أن أرى زوجتي أو تراني . فكتبت إليّ تضرع أن آذن لها فتطالعني بالخبر على جليته فان الأمر غير ما ظننت ، وإنما هو شأن آخر ستثبته بالبرهان القاطع ، و... وهنا مزقت الرسالة ولم أستوف قراءتها ، وأبيت عليها ما سألت

ووقعت المبارزة وتضاربنا بالسيف ؛ فما كانت إلا هنيهة ثم أغمدت سيفي في صدر الخائن فسقط ميتا ولم ينطق بكلمة ولا حرف

وعدت ساعتي الى باريس فكتبت الى الشركة ألتمس عملا آخر . وجاءني الرد أن لا عمل إلا في ناحية بعيدة من بلاد أفريقيا ... وفي هذه الناحية قد هلك كل من أرسلتهم الشركة اليها ، فهي تضن أن تبعث بي الى الموت

وما علمت الشركة أن الموت هو الذي أريد . فقبلت العمل وسافرت دون أن أرجع الى بكسيول لأرى زوجتي ، إذ لم يكن أبغض إليّ من أن أراها ووهبتها المنزل ونزلت لها عن حصة من مرتبي تدفعها الشركة اليها ؛ غير أني أشترط ألا تعلم ولا يعلم أحد بالمكان الذي سافرت اليه ، وأن يغيّر اسمي في دفاتر الشركة حتى لا تعلم ولا يعلم أحد . وتركت بلادي كأني مودع العالم ، فلا همّ لي إلا أن أموت في أفريقيا فينساني الجميع ...

* * *

ونشبت الحرب غير أني لم أغادر فيها الشدة احتياجهم إليّ ، فلقد كان الزنوج يهاجموننا كل يوم ، ولولا مدافعنا الرشاشة لهلكنا جميعا

وجعل الزمن يمر وكأنه لا يمر عليّ ، إذ لم يكن لي شيء جديد . ولم أعد الى بلادي وآثرت أن أهلك كما يهلك الانسان في الصحراء . وانقطعت عن العالم وانقطعت أخبار العالم عني ، فلم أكتب لأحد ولم يكتب اليّ أحد ؛ واستحجر قلبي من هول المصائب ، ورأيتني كالوحش الذي لا يفهم الموت حين نعت اليّ الشركة ذات يوم زوجتي الخائنة...

وكان صباح وكان مساء ، وتقلب الظلام والنور ، حتى مررت يوماً بحصن تنزل فيه سرية من الجند يقودها ضابط عاش في باريس قبل الحرب ؛ فجلسنا نتحدث ونستعيد العالم ، وما كان أشد دهشتي حين علمت منه أنه كان عاملاً في إدارة الشركة ... !

وترامى بنا الحديث عن رجل ، رجل من الرؤساء ، فقال لي :

— هل عرفت ڤارنك ؟

فحدقت فيه أحسبه يهزأ بي . . . ولكنى تذكرت أنى قد غيرت اسمى فمن البعيد أن يعرف من أنا ؛ وكأنما أراد أن يذكرنى ، فقال :

— ألا تذكر ڤارنك الذى قتله زميل له فى المبارزة ؟

قلت — فما قصة هذه المبارزة ؟

قال — لقد ذهب ڤارنك ضحية خطأ شنيع .

— أى خطأ ويحك ؟ ألم يكن خليلاً لزوجة قاتله ؟

— كلا كلا ... لم يكن فى قدرته أن يكونه ...

ولقد اطلعت على الملف الخاص به عند ما كنت أعمل فى إدارة الشركة ؛ فهذا البائس أطهر من الطفل الرضيع إذ خذلتـه الطبيعة فلا يصلح لامرأة ... لا تلك ولا غيرها ولكنى ...

إنى أعرف ما تريد أن تقول ... نعم إن الرجل فاجأه مع زوجته على حال ظنها مريبة ، غير أنهما لم يكونا فى مجلس غرام ، بل اجتمعا لشأن آخر . . فقد كانت هذه الزوجة تضرعت إلى ڤارنك وألحت عليـه أن يسعى فى الانعام على زوجها بنوط الشرف ، وسعى ڤارنك وكتب إلى الشركة أيضاً ، وقد رأيت كتابه بعينى رأسى ، وكان طلبه قريباً من الاجابة ، وبشروه بذلك ، وذهبت الزوجة إليه تتلقى البشرى ، ولكن الزوج الأبله تحرّش به ولم يسمع منه ، ثم قتله ولم يسمع من زوجته ، ثم رحل إلى حيث لا يعلم أحد أين رحل ...

* * *

قال محدثى :

هذا ما قصه الضابط ... وكدت والله أموت حسرة وندما ، وكدت أجن من هول ما صنعت ، وتمزق قلبي أشد وأوجع مما قاسيت من قبل ، فلم أطق العيش وحاولت الانتحار فحيل بينى وبينه ، ثم اختلت أعصابى وأصبحت خطراً على أتباعى ، ولست أدرى ماذا كان يحدث لو لم ترحمنى الطبيعة هناك فتضربنى بالحمى التى أرجعتنى إلى هنا ... ! ولم تقتلنى الحمى فقد كانت لى قوة أقوى منها ، وهى رغبتى فى التكفير عن الذنب

وبحثت فعلمت أن ڤارنك ربيباً هو ابن أخته ، وقد ذلّ بعد عز ، وافتقر بعد غنى ، فنزلت له عن أكثر ما جمعت من المال

أما زوجتى المسكينة فلم تترك أحداً تربطه بها آصرة ، فجعلت همى أن أعيش ما بقى من العمر فى ذكراها ، أتعذب بها كما عذبتها . . . فاستعفيت من العمل وجئت أريد بكسيول التى دُفنت فيها ، وهى ما رأيت من غراس الورد على أنواعه ، ومن هذه الأحجار الغالية ، وهى من نحت مثّال عظيم فى باريس ، وهو آت بنفسه على أثرى ليقيم البناء على القبر ، فيجعله أثراً خالداً مذكوراً من آثار الفن ، وإلى جانبها سأقضى بقية مدتى ، وإلى جانبها سأدفن

* * *

وحان المطعم أن يغلق أبوابه ، فخرجنا وكان المطر ينهمر ، وجعلنا نلتمس الطريق حتى بلغنا المحطة وبها مقهى يظل مفتوحاً إلى الصباح ، وأبى صديقى إلا أن يدخل إليه ، فهو على سنه ما زال يظمأ إلى الخمر ؛ ولم يكن احتجز لنفسه غرفة يأوى إليها فى الفندق ، وتركته يتمايل سكراً وانطلقت وحدى .

* * *

قلت فى أول القصة إنى توجهت إلى المحطة وجعلت أتصفح الوجوه أبحث عن شخص ، فهو صاحبى شميزالك ، وقد التمسته فلم أجده ، وانتظرته فلم يجئ ، إلى أن تحرك القطار فوثبت إليه

وبلغنا بكسيول وفيها ينزلون ما جاء به صديق عن غراس الورد وأحجار القبر ، وأنزلها القطار ومضى بى

وقضيت عملى ورجعت بعد أيام ، فاضطررت إلى التخلف مرة أخرى فى بوفليبه ، فنزلت حيث كنت نازلاً وسألت الخادم :

— هل عثروا على القاتل ؟

فقال : انهم قبضوا على فتاة ولكنهم لم يقبضوا على دليل يثبت جنايتها . وأن هذه الفتاة أقرت أن القاتل رجل غريب كان معها هو والقتيل ، ووصفته بأوصافه ، فبحث الشرطة فى جميع الفنادق واتصلوا بكل من نزلوا بها تلك الليلة فلم يهتدوا إليه ولا إلى من يعرفه . ولعله لم يقض ليلته فى الفندق . . . ولكن ما الذى يدعو هذا الغريب لقتل ڤينيه ؟ لا أظنها إلا حيلة تريد الفتاة أن تخدع بها الشرطة . . . وأى ذلك كان فأمامك الجريدة المحلية وقد اقتصت الخبر من أوله إلى آخره

وتناولت الجريدة وقرأت ما شهدت به الفتاة فاذا هى تقول إنها كانت صدرا من الليل مع ڤينيه تعاقره الخمر حتى ثملا . فلما انتصف الليل وأغلقت الحانة ذهبا الى مقهى المحطة ؛ ودخل الى المكان رجل علاه المشيب ، أسمر الوجه مشرب بحمرة ، قوى الجسم ، قصير القامة ؛ وكان يترنح من شدة السكر . فتجاذب هو وڤينيه الحديث وخاضا فيه ، وزعم أنه قادم من باريس ووجهته الى بكسيول

وأخذ ڤينيه كعادته يُشَقِّق الحديث بأخبار النساء من حظاياه وعشيقاته ، وقال ان اسم بكسيول يذكره بأيام الطلب إذ كان فى السابعة عشرة من عمره ، وكان يومئذ قد اتخذ أول خليلاته وهى زوجة مهندس تدعى مشلين . . . وازدهى بأنها كانت تهيم به هيام الجنون فتأتى فى سيارتها الصغيرة بين الوقت والوقت للخلوة به فى فندق من الفنادق ثم تدفع للفندق ما كان يجب أن يدفعه هو . . . !

وجعل ڤينيه يلعن زوج هذه المرأة فقد كان أبله مغفلا ؛ إنهم رئيسه بزوجته فدعاه للمبارزة وقتله ثم نأى فلا يعلم أحد أين هو . وقد ترك لزوجته منزلاً وحصة كبيرة من مرتبه ، فكان ڤينيه هو الذى يستمتع بالمال والدار والزوجة ، ساخرا هو وعشيقته من المغفل . . . الى أن هلكت المرأة

وهنا سكت ڤينيه عن الكلام وكان السكر قد نال منه ، فتمتم الرجل الشيخ بكلمات لم تفقهها الفتاة ؛ بيد أنها رأت وجهه كوجه النمر من الحنق والغيظ

وبعد ذلك أخذ ڤينيه يغنى ويعربد فأخرجهم صاحب المقهى . وسأل الشيخ صديقه أن يصحبه فى نزهة ، وأبت الفتاة وألحت على ڤينيه أن يعود الى مثواه ، فأغضبه الحاحها فلطمها لطمة ألقتها إلى الأرض . وما كادت تنهض حتى أبصرتهما يبتعدان إلى ناحية النهر . . .

* * *

فالقيت الصحيفة من يدى وقد عرفت من القاتل . . . وتحزنت على صديق التمس صاحب غراس الورد وأحجار المرمر المصقول . . . فلا بد أن يكون قد أزهق نفسه وانتهى القاتل والقتيل . . .

وقبل أن أغادر قرية بوفليبه تحدثت الى محطة بكسيول فعلمت أنه لم يأت إليهم أحد يسأل عن المرمر وغراس الورد ، وقد ذوى الغراس فانقلب حطباً . . .

وأنت يا قبر زوجة شمبزاك . . . ؟ ؟

محمد الرافعى

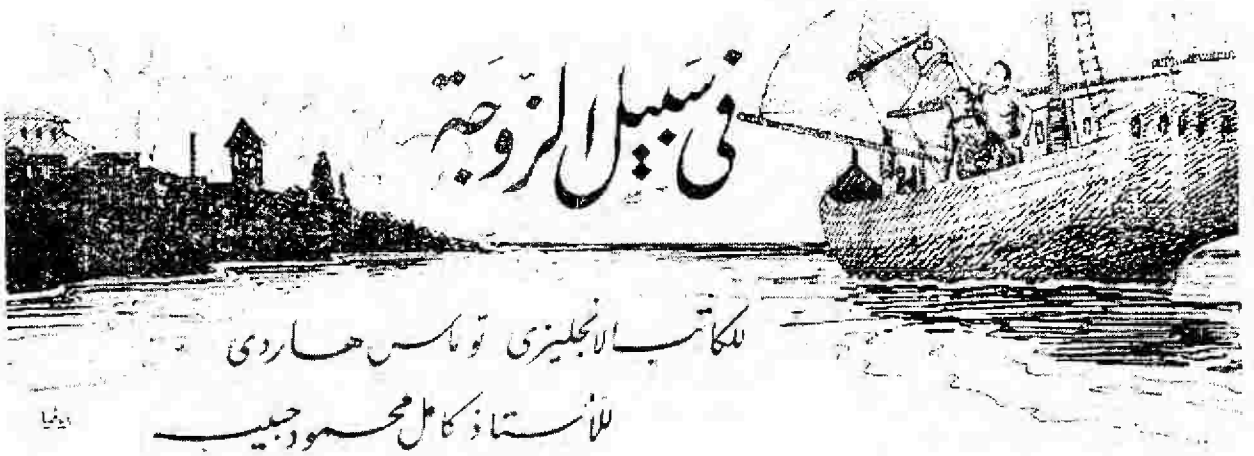

في سبيل الزوجة

للكاتب الانجليزي توماس هاردي

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ١ —

فى أمسيّة يوم من أيام الآحاد ، وقد ابتدأ الظلام ينشر سجوفه على مدينة هاڤنبول ، كان فناء كنيسة سان چيمس يتلألأ ، وتسطع فيه أضواء الشموع ؛ والقسّ فى محرابه يحذّر الناس ويعظهم ... ثم وقف — وقد انتهت الصلاة — فى خشوع وذلة ، وراح الجمع ينسلّون رويداً رويداً .

كان المكان هادئاً صامتاً لا يرتفع فيه إلا هدير الأمواج الصاخبة تصفع الشاطىء فى شدة حيناً وفى لين ، وإلا صوت أقدام رجل ينطلق إلى باب الكنيسة يريد أن يفتحه لينصرف المصلون ؛ وحين شارف الرجل على الباب ارتفع المزلاج من الخارج ودلف رجل فى لباس البحّار ... ثم انطلق على مهل حتى وقف بإزاء المحراب ، والقسّ يحدجه بنظرات فيها الغضب والحنق على فضوله ؛ غير أن البحار قال فى هدوء : « لا تؤاخذنى عما فات يا سيدى ، فلقد جئتُ لأحمد الله على أن أنقذنى من الغرق حين تحطم مركبي ؛ هذا واجب أريد أن أؤديه إن وجدتُ منك الرضا » ، وصمت الراهب حيناً ثم قال : « لا مانع ؛ وكان يجدر بك أن تجىء فى بدء الصلاة ، والآن سنصلى معاً صلاة النجاة من الغرق » ، وانطلق القس يتلو الصلاة والبحار يرددها بعده كلمة كلمة ، وقد ركع وضم يديه إلى صدره فى خضوع ، والجمع من حوله خشّع ينظرون .

وحين تمت الصلاة انصرف الناس وقد عرفوا فى الشاب البحارَ شادراك چوليف الذى رحل عن وطنه الأول هاڤنبول ... رحل عنه إلى نيوفوند لاند ، حين مات أبواه .

وانطلق البحار يحدث هذا وذاك ، ويقص عليهم قصة حياته منذ ركب البحر ...

وعلى قيد خطوات منه فتاتان : أما إحداهما فضئيلة ضامرة رقيقة ، وأما الثانية فطويلة فارعة ؛ جذبه إليهما بعض ما بدا عليهما من رقة وخفة ونشاط ، فقال لمحدّثه : « من الفتاتان ؟ » قال له صاحبه : « أما القصيرة فهى إميلى هاننج ، وأما الطويلة فهى جُوَانا فليپارد » ، قال : « نعم لقد ذكرتهما ... » ثم أسرع ؛ وحين حاذاهما قال : « إميلى ، ألا تذكرين ... ؟ » قالت الفتاة : « هذا ما أظنه يا مستر چوليف ! » وحدّقت فيه الثانية ، فقال : « لا أستطيع أن أذكر الآنسة جوانا غير أنى أعرف عنها الكثير »

وساروا جميعاً والبحار يحدثهما حديث ماضيه ، وهما تنصتان فى شغف ولذة ، وبلغوا — بعد حين — دار إميلى ، فتركتهما هذه ليسيرا جنباً

إلى جنب حتى دار جوانا ... وحين رأى شادراك نفسه وحيداً ارتد الى دار إميلى ... إنها تعيش مع أبيها ، وهى تدير دكانا صغيراً للكتب ، تسد بما تربحه منه ثغرة لا يسدها راتب أبيها الضئيل ... ودلف إلى الدار ليجد الأب وابنته يشربان الشاى ، فتناول قدحاً آخر ؛ وأخذ يحدثهما حديث البحر ومفاجآته ، والفتاة تحس أن هذا الشاب يجذبها إليه رويداً رويداً ؛ ومضى أسبوع توثقت فيه بينهما عرى الصداقة

وتلألأ القمر — ذات ليلة — ليبعث فى نفس البحّار الشاب النشوة والطرب ؛ فانطلق يستمتع بالهدوء والبحر والقمر ، ويستروح نسمات الحياة الناعمة ... ورأى فتاة تسير على بعد ظنها إميلى فانطلق فى إثرها ، وحين صار بحذائها وجدها جوانا فحياها وسار الى جانبها ، وهى تدفعه عنها برفق خشية غضب إميلى ، غير أنه أصم أذنيه عن كلماتها وراح يحدثها . . .

ماذا قال لها وماذا قالت ؟ ماذا كان منها وماذا كان منه ؟ لم يبح شادراك بشىء من ذلك ، ولكنه أصبح يهفو نحوها ويهمل أميلى قليلا قليلا . وطارت إشاعة تحمل فى ثناياها عزم البحار الشاب على الزواج من جوانا دون إميلى . ودوت الاشاعة لتبعث فى نفس الأولى الأمل الحلو ، وفى قلب الثانية اليأس والخيبة ... وبدا لجوانا أن تنطلق الى صاحبتها تكذب الخبر وتقول لها إنها ستدفع الشاب عنها فى رفق ولين . . .

لم يكن شادراك هو كل أمل جوانا ، فهى لا تستشعر حبه فى قلبها ، وهى لا ترى فيه رجلها لأنه فقير ، ثم هى جذابة جميلة ناعمة ، تأسر القلوب وتسيطر على الأفئدة ؛ غير أنها أعجبت بلباقة البحار وظرفه ، وكانت ولوعاً بالزواج . . .

واختلجت هذه الأفكار فى رأسها فكتبت الى صاحبها تقطع ما اتصل بينهما ، وانطلقت الى صاحبتها تريد أن ترى أثر الخبر فى نفسها ، وفى يدها كتابها الى شادراك لتقرأه على صديقتها قبل أن ترسله .

دخلت جوانا فلم تجد إميلى فى الدكان فجلست تنتظر ... ونظرت فاذا شاب يحدق فى بعض الكتب من خلال الزجاج ... إنه هو ، هو شادراك جاء ليجلس الى إميلى ، وهو الآن يجيل بصره فيما حوله علّه يجدها وحدها ؛ وأنفت جوانا من أن تجلس الى صاحبها تحت سمع إميلى وبصرها فانفلتت تتوارى خلف سجف لترى وتسمع ، ولتستطيع أن تتسلل من الباب الخلفى متى أرادت ... وبدا لعينيها ما ارتسم على وجه شادراك من سمات الألم والحزن حين دخل فلم يجد إميلى ؛ وهمّ أن يخرج غير أن شبح إميلى كان قد بدا له فتريث . وحين رأته هى فزعت كأنها تريد أن تنكص على عقبيها ، فقال شادراك : « لا ... لا ترحلى ، ما الذى يفزعك يا إميلى ؟ » قالت : « لا شىء ياربان جوليف ، لا شىء سوى أنك فجأتنى فاضطربت » وكان صوتها يضطرب كأنه يحدّث عن بعض ما فى قلبها من يأس وألم . ورأى الشاب ذلك فقال وهو يبسم : « لقد عرّجت عليك فى طريقى ... » قالت وهى تقفز ليكون النضد بينهما « لعلك تريد بعض الورق ! » قال : « لا ، لا ، يا إميلى ؛ لماذا تقفزين هناك ؟ لماذا تبتعدين عنى ؟ أفأصبحت تبغضيننى ؟ قالت وما زال الاضطراب فى ألفاظها : « لا ، أنا لا أكرهك ، وكيف أفعل ؟ » قال : « تعالى إذن هنا نتحدث كصديقين » . . . وجلست إليه وعلى فمها ابتسامة رقيقة ، وانطلق هو يحدثها : « ها أنت ذى ياعزيزتى ... » فقاطعته : « لا تقل هذا ، أيها الربان ؛ إن هذه كلمات يجب

أن تكون لشخص واحد ليس غير » . قال : « لقد أدركت ما تعنين ؛ وإنى أقسم أنه ما جال فى خاطرى يوماً أنك تفكرين فىّ . أنا أشعر بميل إلى جوانا ، وأعلم أنها لا تحمل لى فى قلبها شيئاً من الحب ، وما كان بيننا سوى الصداقة ؛ وأنت تعلمين أن البحار حين يهبط أرضاً يكون أعمى كالخفاش ، فهو يريد امرأة تسلس له وتنقاد ثم لا يعنيه ماوراء ذلك . ولقد أحببتك وسكنت إليك — بادىء الأمر — ولكنك انزويت عنى فأحسست كأنك تدفعيننى عن نفسك فى رفق ، فانطلقت إلى جوانا ... » قالت وهى ترتجف : « كفى ، كفى ؛ فأنت ستتزوج من جوانا فى الشهر القادم ، وإنه من العار ... » قال وقد أمسك بذراعها يضمها إليه : « إميلى ... عزيزتى إميلى ... إنه هو أنت ... أنت وحدك التى أحب ، وأنت التى سأتزوجها . إن أمل جوانا أن تتزوج من رجل غيرى غنى . إنها لا تصلح لى ... » ، وكانت جوانا من خلف الستر تختلج وتضطرب وقد فجأها حديث شادراك فأزعجها وآلمها ، فانطلقت وفى قلبها الحقد والكراهية لصاحبتها إميلى ... انطلقت إلى دارها تمزق الخطاب الذى كتبته إليه وفى رأسها خاطرة تضطرم : لقد عزمت على ألا تدع البحار الشاب يفلت فيكون هو سعادة إميلى وشقاءها فى وقت معاً ...

وطربت إميلى لحديث الشاب فقامت تودعه وفى عينيها عبرات الشكر والسرور

وسيطرت الفكرة على شادراك فكتب إلى جوانا يكشف لها عن بعض ما ظنه قد خفى عليها ، وطلب اليها أن تكتب له ، ثم انتظر ... انتظر طويلاً فلم يظفر منها بكلمة ، وأمضه الانتظار ، فانطلق اليها ... وقالت له أمها : « إنها مريضة لا تستطيع أن تجلس اليك . ولقد أحست هى فى خطابك صفعة قوية قاسية هدمت كيانها » وأفاضت الأم فيما قالت ، وكان البحار الشاب رقيق القلب ، سليم الطوية ، فصدق حديث الأم المفترى ، وألقى بين يديها قياده وهو يقول : « ويلى ! لقد قسوت حقاً ؛ والآن فلها هى الخيار »

وفى الصباح التالى جاءه خطاب من جوانا تطلب اليه أن يوافيها الى الملتقى ... وقالت له وهما يسيران ذراعاً فى ذراع : « الآن رجعت المياه إلى مجاريها ، وكان خطابك غلطة من غلطات الشباب أليس كذلك ؟ » قال وهو يبسم : « بلى ...! »

وتصرمت أيام ... طلعا بعدها على العالم عروسين ....

— ٢ —

وكرهت الزوجة أن ترى زوجها يركب البحر فيخلفها نصف زوجة ، ويتركها وحيدة وقد ماتت أمها ، ثم هى لا تأمن غدر الأمواج ، فراحت تحبب اليه البقاء الى جانبها ليقوما معاً بعمل فيه الأمن والربح

واطمأن الزوج لحديث زوجته ، فأنشأ دكاناً للبدالة ، وبذل قصارى جهده ليفوز من دكانه بمغنم ؛ غير أن جهله بفنون التجارة كان عقبة كأداء . ودار الفلك دورات ، وهو هو ، حيث كان منذ سنوات ، لم يفد شيئاً سوى ولدين أشرقا فى دجى حياته ، وأحبتهما الأم حباً أنساها ما كانت تحبو به زوجها من الحب ، وشب الطفلان على شاطىء البحر فيهما الفراهة والقوة والنشاط ، لكنها لا تستطيع أن تنشئهما كما صور لها خيالها ، وبدت لها الحقيقة مرة لذاعة

* * *

وكانت إميلى قد تزوجت من تاجر غنى ، راح يتودد إليها حتى رضيته زوجا ، وتفتحت زهرة هذا الزواج عن طفلين مسحا عن قلبها ما كان من حب لشادراك ومن كراهية لجوانا ، واستقرت إميلى فى دار زوجها الفسيحة الجميلة ، وهذه الدار تجاه دكان شادراك !

اشد ما آلم جوانا أن ترى المرأة التى غلبتها على أمرها حينا من الدهر فى قصرها المشيد ، ترفل فى حريرها وسندسها بين أطفال كالأقمار ، وأن تراها تطل من نافذتها بين الحين والحين كأنها تستمتع بما ترى فى دكانها من معانى الضعة والفقر ! ولشدّ ما حزّ فى قلبها أن تستشعر الخيبة بعد أن أحرزت النصر ؛ وأن ترى حياتها تتفتح عن فاقة وعوز ! أفكان هذا هو كل ما أفادت جوانا حين ظفرت بفتاها شادراك ؟

* * *

وجلست جوانا إلى زوجها تحدثه وقد خلا المكان إلا منهما ، وبصرها معلق بعربة أحد الأغنياء الكثيرين الذين يزورون إميلى بين الفينة والفينة ؛ تحدثه تقول : « ما كان لرجل أن يبرز فى عمل لا يجيده ولا يتقنه ، وأنت لا تحسن فناً من فنون التجارة » قال الزوج : « إن الثراء لا يعنينى كثيراً ، وحسبى أن أعيش إلى جانبك سعيدا .. » قالت : « أفلا ترى ما بلغت إميلى من الثراء والدعة ؟ إن ابنيها يتعلمان فى الكلية ، أما ابناك فلا يستطيعان ... » واستيقظ الهوى فى قلب البحار حين ذكرت إميلى فقال : « إنه أنت .... أنت التى رفعت إميلى إلى ما ترين حين جذبتنى إليك ، فارتدت هى فى يأسها تجيب التاجر إلى ما طلب . » وثار الحقد والغضب فى صدر الزوجة فقالت فى غيظ وحدة : « دع الماضى ، وانظر كيف تجد السعادة لابنيك ! » قال : « لقد كنت أستطيع لو أننى انطلقت إلى عملى .. عملى الذى أجيده ... إلى البحر ... »

وتحركت أطماع الزوجة فى صدرها فقالت : « أفترى النجاح هناك ؟ » قال : « نعم » قالت : « أفتريد أن تذهب ؟ » قال : « ما أريده للذة فى نفسى فأنا أجد اللذة هنا إلى جانبك وإلى جانب أولادى غير أنك تريدين الثراء ، وهذا طريقه . » قالت : « ومتى تعود ؟ » قال : « من يدرى .؟ »

وفى الصباح لبس شادراك ملابس البحار وانطلق إلى البحر ... إلى نيو فوندلاند ...

* * *

وترعرع الطفلان ، وانطلقا إلى الميناء يعملان بأجر زهيد ، وأمهما جالسة إلى نفسها تحدثها : « لا ضير ، فهما يكسبان ما نسد به عوزنا ، سيكونان فى السابعة عشرة والثامنة عشرة حين يرجع أبوهما يحمل إليهما المال ، وبه يبلغان ما بلغ أبناء إميلى من الرفاهية والعلم ... »

وانقضت الأيام ، وحانت عودة شادراك ولكنه لم يأت ... غير أن ذلك لم يزعج الزوجة ولم يقلقها فهى تعلم أن المركب شراعى وأنه لا ضير إن لم يصل فى ميعاده ... وانطوت أيام ...

وعاد الرجل وعلى وجهه سمات الفرح باللقيا بعد الفراق الطويل ، وعلامات الفوز بما يرضى به زوجته ؛ وراح يضم زوجته فى شغف وحب وهو يقول : « لقد أفدتُ كثيرا ياجوانا » ثم أفرغ فى حجرها كيسا كبيراً قد ملىء ذهباً . وبدت الدهشة على وجه الزوجة — بادىء ذى بدء — ثم انمحت قليلاً قليلاً ، ليحل محلها الجشع الذى فى صدرها فقالت : « أهذا كل ما أفدت ؟ » واستشعر الرجل الخيبة فقال : « ماذا ، ما ذا يا عزيزتى ؟ إنه

لثراء ... ! » قالت وكأنها تؤنبه : « هذا ثراء لمن يعيش فى البحر ؛ أما هنا ... »

وأمسكا عن الحديث حين دخل الولدان ...

وفى يوم الأحد التالى انطلق شادراك الى الكنيسة ليؤدى صلاة النجاة

وبدا للرجل أن زوجته لا تقنع ، فراح يحدثها ليستشف من حديثها بعض ما يكنه قلبها ، فقالت وهى تشير الى دار إميلى « إنهم يملكون الآلاف وما عندنا سوى بضع مئات ؛ لقد اشتروا عربة وحصانين . ما زلنا فقراء يا شادراك ... »

وقضى الزوج عاماً لا يرى زوجته إلا حزينة كئيبة ، فأمضه ذلك وآلمه وعزم على أن يغامر فى البحر مرة ثانية مع ولديه . وانطلق الى زوجته يكشف عن عزمه فاضطربت وفزعت ، وقالت : « لا ، لا ، ياشادراك . لا أستطيع ذلك ، ولا أريد أن أقذف بهما فى يد الأمواج ... » قال الزوج « وأنا لا أستطيع السفر بدونهما »

وباتت المرأة ليلتها تقلب الفكرة فى رأسها ، وعلى خطوات منها إميلى تسعّر الحقد والغيظ فى قلبها فلا تستطيع صبراً على ما هى فيه من فاقة وفقر ؛ غير أنها لا تقوى على أن تعيش وحيدة ، ولكن .. ولكن أحلامها فى الغنى والسعادة ...

وصبحت زوجها تقول له : « أتستفيد كثيرا لو أنهما ذهبا برفقتك ؟ » قال : « أضمافاً مضاعفة ، فهما خير لى من رجال كثير ، وأنا ألمح فيهما الذكاء والفطنة والجلد والجد » قالت : « وهل فى ركوب البحر من خطر ؟ قال : « نعم »

ومرت أيام وأيام ، والأم لا تستطيع أن تقر على رأى ... ثم وافقت ...

— ٣ —

وخيّل للرجل أن موقف الوداع يعصف بقلب الأم ويبذر فى الصبيين غراس التخاذل والضعف ، فانسلّ برفقة ولديه فى الصباح الباكر ونسمات الربيع تمر هيّنة ندية . وأحست الأم ، بعد حين . فاندفعت على آثارهم لترى ما سطره الرجل على الجدار ، ينبئها بسفرهم خلسة لئلا تحزنها ساعة الفراق وتؤلمها ، لترى كل ولد وقد ترك أثراً تحت أثر أبيه يقول : « وداعاً يا أماه ! » وانطلقت الأم تدرك السفر ، غير أن سفينتهم « جوانا » كانت هناك عند الأفق تمخر العباب ... وتفجرت العبرات من محجريها — وقد تصدع قلبها — تمسح السرور والبهجة عن أيامها . وارتدت ... ارتدت لترى مثلها الأعلى فى المرأة التى دفعت زوجها وابنيها الى اليم ... إميلى ...

وانقضت أشهر الصيف الأولى ، وجوانا لا تبرح دكانها وما فيه إلا الرفوف ، وإلا النضد ، وإلا بقية من البضاعة ؛ وجاءت أيام الشتاء تريد أن تمحو ما سطرت أيدى زوجها وولديها ؛ وشق على الزوجة أن ترى هذا الأثر الغالى يمحى ، وهى ترى من خلاله بسمات سيدها وولديها ، فغطته بألواح من الخشب ...

ورأت إميلى ما يضطرب فى خيال صديقتها جوانا فانطلقت ترفه عنها وتشترى منها بعض أشياء هى فى غنى عنها وعن بعض ما فيها من قذارة ورداءة ؛ وجوانا لا تطمئن إليها ولا تهدأ لأنها ترى فى ذلك معنى الشماتة والتشفى ؛ وتأرث الحقد فى صدرها حين رأت ابنى إميلى وقد عادا ليقضيا أيام عيد الميلاد بين أبيهما وأمهما ، يبدو عليهما أثر النعمة والعلم معاً ...

ومضى عام ... وابتدأ القلق يستولى عليها ... وجلست إميلى إليها تحدثها فقالت لها جوانا : « أنت تسيرين فى طريق النجاح دائماً ، أما أنا

فأهبط فى منحدر الاخفاق دائماً » قالت إميلى « لماذا ، لماذا ؟ سيرجمون جميعاً وفى أيديهم الثروة والمال ... » قالت « أفيرجمون ؟ أفيرجمون حقاً ؟ إن الشك قد هيمن علىّ . إن مركباً واحداً قد أقلهم جميعاً ، والأشهر تمضى وأنا لا أعرف ما يصنعون ! لا شىء ينزع عنى الهم سوى عودتهم » قالت إميلى : « أنت مخطئة يا جوانا ، لماذا دفعت بهم الى البحر ؟ » فالتفتت جوانا مهتاجة تقول : « نعم ، انه أنا التى فعلت ، وانه أنت التى أغريتنى بذاك ؛ فما كنت لأستطيع أن أراك غنية ترفلين فى حلاك وحللك ونحن نتخبط فى شدائد الفقر والحاجة . هذا ما فى قلبى ، ولا يعنينى بعدها أن تكرهينى » قالت إميلى فى هدوء : « لا يا جوانا ، أنا لن أبغضك أبداً »

وكانت إميلى صادقة فيما قالت ...

ودار الفلك دورته يذيق المرأة وبال أمرها ، لتكفر عن سيئات اقترفتها حين طاوعت أطماعها ، واليأس يتدفق فى قلبها ينزع عنها الصبر والايمان

وذكرت أمنية زوجها حين قال : « ... وحين نعود غانمين سالمين نذهب الى الكنيسة لنؤدى صلاة الحمد كما فعلت أول مرة ... » فكانت تذهب هى صباح مساء لتركع هناك حيث ركع زوجها منذ سنوات وسنوات وهى تضرع الى الله ...

وطال بها الانتظار ، وهى لا تجد من يقص عليها قصة زوجها وابنيها ، فتوزعتها الهموم والأحزان ، وارتاحت لوحدتها وخلوتها ؛ وإميلى من ورائها تدفع عنها الخواطر السود ؛ غير أن جوانا قالت لها فى غضب وحسرة : « أنا أكرهك ! أنا لا أستطيع أن أراك ! » قالت إميلى : « لماذا ؟ فأنا أريد لك السلوة والاطمئنان ! » قالت : « أنت سيدة غنية تتنعمين بالمال والزوج والبنين ، فماذا تبتغين من امرأة مثلى تهدمها الأيام ؟ » قالت إميلى فى رقة : « أطلب إليك أن تعيشى معى ... معى فى منزلى فأخرجك عن خلوتك ووحدتك وكآبتك » قالت : « لا ، لا . سأظل هنا ! إنك تريدين أن تنتقمى ... تنتقمين منى لأننى حلت بينك وبين شادراك ؛ إنك تريدين حبسى فى دارك لتبذرى فى نفوسهم اليأس حين يعودون فلا يجدوننى »

وأمسكت إميلى عن الاجابة لأنها تعلم — كما يعلم من فى هافنبول — أن شادراك وولديه قد ابتلعتهم الأمواج منذ حين ...

ومرت الأيام ... وعجزت جوانا عن أن تدفع أجر الدكان والمنزل حين نضب معينها ؛ فهى قد عافت العمل منذ زمان ، وزوجها قد أخذ كل ما أفاد ليثمّره ويكثره ، وتضاءل الأمل فى عينيها رويداً رويداً ، فأجابت إميلى إلى ما طلبت ... وامتدت يد الأيام إلى المرأة تحمل إليها المشيب الباكر ، وترسم على وجهها غضون الأسى والألم ، وتحنى ظهرها ، غير أن الأمل ...

واستولت على المرأة نزعة جنون تفزعها عن مرقدها بين الفينة والفينة لتنظر خلال النافذة علّها تجد أحبّاءها

* * *

وهبت ريح الشتاء الباردة تصفر صفيراً مزعجاً ، والظلام الحالك ينشر ذوائبه على المدينة ، والمرأة جالسة فى حجرتها ترهف السمع ... ترهف السمع بعد ست سنوات خلون منذ أن أقلع المركب « جُوانا » ... وخيل إليها أنها تسمع صوت شادراك وولديه ، فاندفعت تدق باب الدكان دقاً عنيفاً ... وأطلّ شاب من النافذة ليقول لها : « ياسيدتى ، إن أحداً لم يأت ! »

كامل محمود حبيب

يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

١٦ اكتوبر . . .

لم نستطع أن نعرف شيئاً من الشيخ عصفور ، ولم نستطع كذلك أن نقبض عليه ، فهو لم يرتكب أمراً يقع تحت نصوص القانون فأطلقناه ، وخطر ببالنا أن ندفع فى أثره أحد المخبرين عسى أن نستكشف مخبأ الفتاة . . . ولكن أين هو المخبر السرى الذى يخفى على الشيخ عصفور ؟ إنه يعرف كل رجال الحفظ معرفة أكيدة ، وهو الذى قام معهم فى الوقائع مئات المرات وسهر معهم وأكل وشرب وغنى وأنشد ، ودلهم على مخابىء الأسلحة ، واقتفى معهم آثار المجرمين . إنه يكاد يحسب من أسرة « البوليس » . تركناه ينصرف فى سلام . وقد اكتفى المأمور الحانق بأن شيعه إلى الباب بصفعة على قفاه شفى بها غليله ، وانصرف بعد ذلك كل منا إلى شأنه : المأمور إلى ناديه ، وأنا إلى منزلى حيث خلعت ملابسى وخلوت الى نفسى ، وأخرجت كراسة يومياتى ألقى فيها هذا الكلام الذى لا أجد من أفضى به اليه فى هذا الريف . إن القلم لنعمة لأمثالنا ممن كتبت عليهم الوحدة ، ولكن القلم كالجواد ينطلق أحياناً من تلقاء نفسه كالطائر المرح ، وأحياناً يحرن ويثب على قدميه ويأبى أن يتقدم كأن فى طريقه أفعى رافعة الرأس . وهو الساعة يهتز فى يدى ويرقص ولا يطيعنى كأن شيئاً يخيفه أو يقصيه عن مروج الأحلام . فنظرت إلى خزانة ملابسى الخشبية فاذا فأر أسود على رأسها واقفاً يقرض الخشب بأسنانه ؛ فجعلت أنظر إليه عله يذهب ، فلم يذهب ؛ ومضت ساعة وهو فى مكانه وأنا فى مكانى ، كلانا له عمل من غير شك ، وهو فيما يبدو لى لا يحفل بوجودى ، ولكنى أنا أحفل بوجوده . فزيارته فى هذه الساعة شغلتنى عن نفسى . وأخذت ألاحظه وهو يمسح رأسه وفمه بيديه الصغيرتين . وجعلت أفكر فى هذا المخلوق الذى لا يفكر فىّ ، وهنا كل الفرق بينى وبينه ؛ وتركت هذا النجار الصغير ذا المنشار الدقيق ، وحملت كتابى إلى سريرى وسدلت « الناموسية » علىّ وأحكمت ربط أطرافها حتى آمن فضول هذا الزائر إذا حدثته نفسه بمداعبة قدمى العارية . ولم

أجد فائدة من « المصايد » فانها تكلفنى عناء فى إعدادها وترقب نتيجتها . وليس أشق على النفس ولا أدعى إلى إضاعة الوقت من انتظار النتيجة . إذا كانت الفريسة حاضرة تحاورنا وتداورنا ولا تقع حتى تقع معها نفوسنا . وفوق ذلك فلكم قنصنا من الغيران ، ومع ذلك لم تنقطع زيارتها ، فلنتركها إذن تجئ وتروح ؛ ولنحمها هذا الجميل ؛ ولنحرص نحن على أنفسنا وحوائجنا . وأنا والله الحمد ليس لى حوائج يخشى عليها غير هذا الأثاث الرخيص من الخشب الأبيض قد حطمته كثرة التنقلات من بلد الى بلد . فماذا يضيره أن تعبث به أسنان صغيرة ؟ ونمت فى تلك الليلة بعد العشاء بقليل ، فان فى اليوم التالى جلسة القاضى السريع ، وقد كلفت مساعدى بحضورها على أن أحضرها معه إلى جواره كى أمرنه على نظام الجلسات وما يتبع فيها من إجراءات . وجاء الصباح وذهبت إلى المحكمة فوجدت مساعدى فى غرفة المداولة متأبطاً مظروفاً به وسامه وهو فى انتظار القاضى . ولم يلبث القاضى أن جاء فى القطار القادم من القاهرة وخلفه شعبان الحاجب ، وهما يشتدان فى الخطى والقاضى يخرج من جيبه نقوداً يناولها للحاجب ويقول له :

— اللحم يكون فلاحى من قشرة بيت اللوح ! واصبح للبيض ياشعبان افندى ؛ والزبدة والجبنة على عهدتك . أوضع الحاجة فى السلالى « كويس » وانتظرنى بها على المحطة فى قطر ١١ كالمعتاد . اطلع انت السوق والأفندى المحضر يقوم بدلك بالعمل !

وانصرف الحاجب سريعاً ، ودخل علينا القاضى وسلم فى عجلة قائلاً :

— أظن ندخل الجلسة .

وصفق بيديه :

— يا افندى يا محضر ! حضر الجلسة . . . الجلسة .

وألقى بمطفه النيل الأبيض السفرى على كرسى ، وأخرج وسامه الأحمر من محفظته ولبسه فى الحال . وأقبل الفراش بالقهوة فشربها القاضى وهو واقف فى جرعتين وهجم على قاعة الجلسة ، ونحن فى أعقابه ، وصاح المحضر :

— محكمة ! !

ونظر القاضى فى « الرول » وقال :

— قضايا المخالفات . محمد عبد الرحيم الدنف ، لم ينق دودة القطن . . غيابى خمسون قرشاً . تهامى السيد عنيبه . . . لم يقدم ابنه للتطعيم . . غيابى خمسون . . . محمود محمد قنديل ، أحرز بندقية بدون رخصة . . غيابى خمسون والمصادرة . غيابى خمسون . . غيابى خمسون . . .

وانطلق القاضى فى الأحكام كالسهم لا يوقفه شىء ، والمحضر ينادى مرة واحدة حتى يلاحق القاضى ؛ فمن لم يسمع النداء عد غائباً وحكم عليه غيابياً . ومن سمع بالمصادفة فحضر يجرى ابتدره القاضى :

— أنت يا رجل تركت غنمك ترعى فى زراعة جارك ؟

— أصل الحكاية ياسعادة البك . . .

— ما عندناش وقت لسماع حكايات . . . حضورى خمسون . غيره . عبد الرحمن ابراهيم أبو أحمد . الخ الخ . . .

وانتهت المخالفات فى مثل لمح البصر ، وجاء دور قضايا الجنح وفيها سماع شهود ومرافعة محامين

وهى تحتاج إلى شىء من الأناة ؛ فأخرج القاضى ساعته ووضعها أمامه ، وصاح فى المحضر :

— بسرعة ؛ القضية الأولى ...

فنادى المحضر :

— سالم عبد المجيد شقرف ...

فنظر القاضى فى الرول وعرف التهمة والتفت الى المتهم وهو لم يجتز بعد عتبة باب الجلسة وصاح فيه :

— ضربت الحرمة ؟ كلمة واحدة ... قل من عندك !

— ياسعادة البك فيه راجل يضرب حُرْمة !

— ممنوع الفلسفة . كلمة ورد غطاها . ضربت ؟ نعم أو لا ؟

— لأ

فصاح القاضى فى المحضر :

— أنكر التهمة . هات الشاهد

فحضرت الحرمة المضروبة تتعثر فى « ملسها » الأسود الطويل ، فلم ينتظر القاضى حتى تدخل الجلسة ، وصرخ فيها :

— ضربك ؟

— أصله يا سيدى القاضى ربنا يخليك ...

— مفيش أصله . ضرب والا لأ ؟ هى كلمة لا غير

— ضرب

— كفاية . واستغنت المحكمة عن بقية الشهود ... كلامك يا متهم

فتنحنح المتهم وجعل يدافع عن نفسه والقاضى مشغول عن سماعه بكتابة الحيثيات ومنطوق الحكم على الرول بالرصاص الى أن فرغ . فرفع رأسه ونطق بالحكم دون أن ينظر الى المتهم أو ينتظر بقية دفاعه

— شهر مع الشغل . غيره ...

— يا سعادة القاضى أنا عندى شُهَّاد . لا ضربت ولا بطحت . الحكم ظلم . ظلم يا ناس

— إخرس ! اسحبه يا عسكرى !

فسحبه العسكرى بعيدا . ونوديت القضية التالية . فحضر رجل هرم مقوس الظهر أبيض اللحية يدب على عصا فابتدره القاضى :

— بددت القمح المحجوز عليه ؟

— القمح قمحى يا سعادة القاضى وأكلته أنا والعيال

— معترف . حضورى ، حبس شهر مع الشغل

— شهر ! يامسلمين ! القمح قمحى . زراعتى .. مالى ...

فسحبه العسكرى . وهو ينظر بعينين زائغتين الى الحاضرين كأنما هو لا يصدق أن الحكم الذى سمع حقيق . إن أذنه لاشك قد خانته ، وإن اليقين عند الناس الحاضرين . فهو لم يسرق قمح أحد ، لقد جاء المحضر حقيقة فحجز قمحه وعينه حارساً عليه حتى يسدد مال الحكومة ، ولكن الجوع اشتد به وبعياله فأكل قمحه ؛ فمن ذا الذى يعده سارقا ويعاقبه عقاب السارق ؟ إن هذا الشيخ لا يمكن أن يفهم هذا القانون الذى يسميه لصاً لأنه أكل زراعته ، وثمرة غرسه . إن هذه الجرائم التى اخترعها القانون اختراعا ليحمى بها مال الحكومة أو مال الدائنين ليست فى نظر الفلاح جرائم طبيعية يحسها بغريزته الساذجة . إنه يعرف أن الضرب جريمة والقتل جريمة والسرقة جريمة . لأن فى ذلك اعتداء

ظاهراً على الغير ، وأن الرذيلة الخلقية فيها بديهية جلية . ولكن التبديد ... كيف يفهم أركانه وحدوده ؟ إنما هو جريمة قانونية يظل يتحمل وزرها دون أن يؤمن بوجودها . وأسلم الشيخ أمره لخالقه . وتسلمه الحراس وهو يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » . ! ونوديت القضية التالية ، ولم يكد المحضر يلفظ اسم المتهم حتى كان القاضى قد وزن « الدوسيه » فى يده فوجده ثقيلاً والشهود كثيرين ؛ ونظر إلى ساعته ، ثم نظر إلى منصة المحامين فلم يجد مع هذا المتهم محامياً فعلمت أنه يريد أن يؤجل القضية ، ولم يخب ظنى ، فقد التفت إلى النيابة قائلاً :

— النيابة طالبة التأجيل ؟

فنظر مساعدى إلىّ مرتبكا . فأسرعت قائلاً :

— بالعكس ؛ النيابة تعارض فى التأجيل

فأخفى القاضى امتعاضه وقال فى شبه همس :

— ننظرها والسلام . هات الشهود ...

غير أن القاضى ذكر أن هذه القضية انما هى قضية « معارضة » فى حكم غيابى سبق فيها . وينبغى أن تقدم المعارضة فى خلال أربعة أيام . فقرأ فى الحال التواريخ وصاح من فوره فى المتهم متنفساً الصعداء :

— القضية مرفوضة شكلا يا حضرة المتهم لأن المعارضة تقدمت بعد الميعاد

فلم يفهم الفلاح ذو « العيرى » هذا الكلام . وقال :

— والعمل إيه يا حضرة القاضى ؟

— العمل أن الحكم السابق بحبسك ينفذ عليك . إحجزه يا عسكرى !

— الحبس بالزور يا حضرة القاضى ؟ أنا مظلوم . لا قاضى سمع كلامى ولا حاكم طلب سؤالى لحد الساعة !

— إخرس ! معارضة يا رجل بعد الميعاد ؟

— وماله ؟

— القانون يا رجل انت محدد أربعة أيام

— أنا يا سيدى القاضى غلبان لا أعرف أقرأ ولا أكتب . ومن يفهمنى القانون ويقربنى المواعيد ؟

— يظهر انى طولت بالى عليك أكثر من اللازم . أنت يا بهيم مفروض فيك العلم بالقانون . إحجزه يا عسكرى !

ووضع الرجل بين المحجوزين وهو يلتفت يمنة ويسرة إلى من حواليه ليرى أهو وحده الذى لم يفهم ؟ !

وجعلت أتأمل لحظة سحنة هذا المخلوق الذى يفترض فيه العلم بقانون « نابليون » ! !

وانتهت الجلسة آخر الأمر . ووثب القاضى ناهضاً وعاد الى حجرة المداولة ، وخلع وسامه على عجل ، فان قطار العودة لم يبق على قيامه غير سبع دقائق . ولكن القاضى تعود الركوب فى آخر لحظة ، فهو فى إسراعه لم يفقد ثباته الداخلى ولا اطمئنانه ؛ وتناول معطفه الأبيض ووضعه على ذراعه وسلم علينا وانصرف الى المحطة فى شبه ركض .

وإذا كاتب النيابة يدخل مسرعاً ببعض الملفات وخلفه عسكرى يسحب مسجوناً والكاتب يصيح :

— القاضى مشى ؟ عندنا معارضة فى أمر حبس معروضة على حضرة القاضى

فقلت له فى الحال :

— الحق القاضى على المحطة قبل ما يركب

فصاح الكاتب فى العسكرى :

— هات المسجون يا شاويش واطلع على المحطة

وهرول الجميع : الكاتب والجاويش والمسجون فى ذيل حارسه مربوطا فى السلسلة كأنه كلب . وجروا كلهم خلف القاضى الراكض . وهذا منظر مألوف لأهل البلد فى يوم هذه الجلسة . فان المعارضات المتأخرة والتجديد لأوامر الحبس تنظر وتمضى فى « بوفيه » المحطة قبل قيام القطار بدقيقتين ، ويتحرك القطار وقدم القاضى ما زالت على الرصيف والأخرى فى العربة الأخيرة وهو يقول :

— رفض المعارضة واستمرار حبس المتهم فيدون الكاتب منطوق هذا الحكم فوق « رخامة » مائدة البوفيه ، بينما يتسلم القاضى من شعبان الراكض خلف القطار المتحرك « سلالى » البيض والزبد واللحم ، والحاجب يصيح بأعلى صوته :

— اللحم يا بك من بيت اللوح وبيت الكلاوى !

وصعدت بعد الجلسة إلى مكتبى أنا ومساعدى وقد بدا الوجوم على وجه المساعد ، فقد كان يحسب أن النيابة ستقوم فى كل قضية تشرح وجهة نظرها فى الاتهام . ولقد كان أعد لذلك مرافعات طويلة مكتوبة بخط واضح جميل على « أفرخ فولسكاب » مسطرة ، فاذا هو يخرج بها من الجلسة مطوية كما دخل بها ، وإذا الأحكام قد انطلقت انطلاق القطار فى بساطة وسرعة ، والعدالة قد جرت مجراها فى طرفة عين كأنها جواد السباق من دون حاجة إلى هذا التحليل والشرح والاستشهاد والاستدلال الذى سهر ليالى ليحشو به هذه الأوراق

وخلوت أخيراً فى مكتبى . ودخل على رئيس القلم الجنائى ببريد النيابة . وفتح مظاريفه أمامى كالمعتاد فى كل صباح . وما كدنا نفض غلافا أو غلافين حتى سمعنا ضجيجاً خارج الحجرة وصوتا مدويا عرفت فيه صوت الشيخ عصفور ، فبعثت من يسأل عن خبره ، فقيل لى : إن المركز أرسله اليوم مقبوضا عليه بعد أن حرر له محضر تشرد . فأدركت أن المأمور ما زال يعتقد أن هذا الشيخ هو الذى خطف البنت . وأن حقده عليه ما زال متأججاً وأنه لجأ إلى وسائل الادارة ليوقع به . إن فكرة اتهام الشيخ عصفور بالتشرد فكرة نيرة لا يمكن أن تخطر إلا بذهن المأمور المغيظ . والحقيقة أن هذا الشيخ متشرد لا أكثر ولا أقل . وهو من هذه الناحية يصلح فريسة لنصوص القانون التى بين أيدينا . ولكن العجيب أن يسكت عنه المركز كل تلك الأعوام التى مضت ولا يفطن إلى أمر صناعته إلا الساعة . إن هذه الوسيلة لم تعجبنى كثيراً ، ولم ترض ضميرى القضائى ؛ فان نصوص القانون لا ينبغى أن تكون أسلحة فى أيدينا نضرب بها من نريد ضربه فى الوقت الذى نختاره . إن القبض على الشيخ عصفور اليوم هو من غير شك مسألة انتقامية . إن المأمور وقد رأى هذا الرجل يفلت من تهمة خطف الفتاة دبر وفكر فى طريق آخر لا يستطيع منه الافلات . هذا أسلوب الادارة الذى لا يحسن أن يسلكه رجال القضاء ؛ وعزمت فى نفسى أن أفرج عن الرجل ، ولكنى أرجأت النظر فى أمره حتى أفرغ من « توريد البوستة » التى أمامى . فلقد قدم لى عبد المقصود أفندى مظروفا

أصفر ضخما علمت أن فيه « قضايا جنايات » مرسلة إلينا من الرياسة لندرسها والمرافعة فيها أمام محكمة الجنايات المنعقدة هذا الشهر فى عاصمة المديرية التى نعمل فى دائرتها . فألقيت نظرة على هـذه القضايا فوجدتها تحوى مئات الصفحات . وهل لى رأس يتسع الآن لكل هذا ؟ لاشىء ينفرنى من عمل النيابة غير المرافعة فى قضايا الجنايات . فان من العسير على ذاكرتى الضعيفة أن تحيط بكل تلك التفاصيل التى تتكون منها الجريمة كى تبسطها بعد ذلك فى نظام وترتيب وهدوء أمام قضاة ثلاثة عابسين ، ومحامين متربصين ، وجمهور يشاهد ويحكم لا على اب الموضوع ، بل على مدى اتقان الحركات والاشارات ، ورنين الصوت فى القاعة ، ومهارة الالقاء ، والضرب باليد فوق المنصة . إنى بطبعى لا أصلح إلا للملاحظة الناس خفية يتحركون فوق مسرح الحياة ، لا أن يشاهدنى الناس ممثلاً بارعاً قد سلطت على وجهه الأضواء . إن هذه المواقف تعمى بصرى ، وتذهب لبى ، وتطير ما فى ذاكرتى ، وتفقدنى ذلك الهدوء النفسى الذى أرى به أعماق الأشياء . لذلك ما ترددت وأمرت باحالة هذه القضايا على المساعد ، فهو ما زال فى تلك السن التى يبهر فيها الانسان ويعجب بهذه المواقف والمظاهر ؛ وقد يكون له من حسن الاستعداد لهذا العمل ما يجب على أن أوجهه اليه . وإنى فوق ذلك أتيح له فرصة الاقامة أياماً فى عاصمة المديرية حيث يجد فى ملاهيها ومشاربها ما يرفه عنه ويلطف من أثر الوحدة والضيق فى هذا الريف الصامت . وأعجبتنى هـذه الحجج ورأيتها كافية لاقناعى بوجوب إزاحة هذه القضايا الثقيلة عن كاهلى . وناولنى رئيس القلم الجنائى بعد ذلك مظروفا آخر صغيراً قرأت عليه بالحبر الأحمر كلمة «سرى» فقلت فى نفسى : « تلك ملحوظة من النائب العام » . فأسرعت بفضه فاذا هو بلاغ من مجهول أرسل الى النائب العمومى رأساً فى القاهرة ، فأحاله على لأجراء اللازم فيه . فنشرته فى يدى وقرأته بامعان ، ولم آت على آخره حتى كان قد استولى على العجب ، وأطرقت لحظة أفكر ؛ ثم أعدت النظر فيه وتمهلت فى قراءة سطوره هذه :

« سعادة النائب العمومى بمصر دام

نعرفكم بأن الحرمة زوجة قمر الدولة علوان المضروب الموجود « بالاسبتالية البرى » كانت ماتت من سنتين مخنوقة وتستر عليها حلاق الصحة من أجل الرشوة وأجرى دفنها بدون علم الحكومة . واسألوا زوجها علوان وأختها البنت ريم عن الذى خنقها . وأسباب الجريمة معلومة ولا تخفى على فطنتكم إذا كلفتم خاطركم بالتحقيق بنفسكم وإنكم تكشفون أسراراً خطيرة ، وتضربون على أيدى الأشرار . « وتوضعون » العدل فى مجراه . والعدل أساس الملك . وقد قال الله عز وجل فى كتابه العزيز : (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) صدق الله العظيم » « فاعل خير »

(يتبع) توفيق الحكيم

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

الطبعة الرابعة

ترجمها أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

وثمنها ١٥ قرشاً

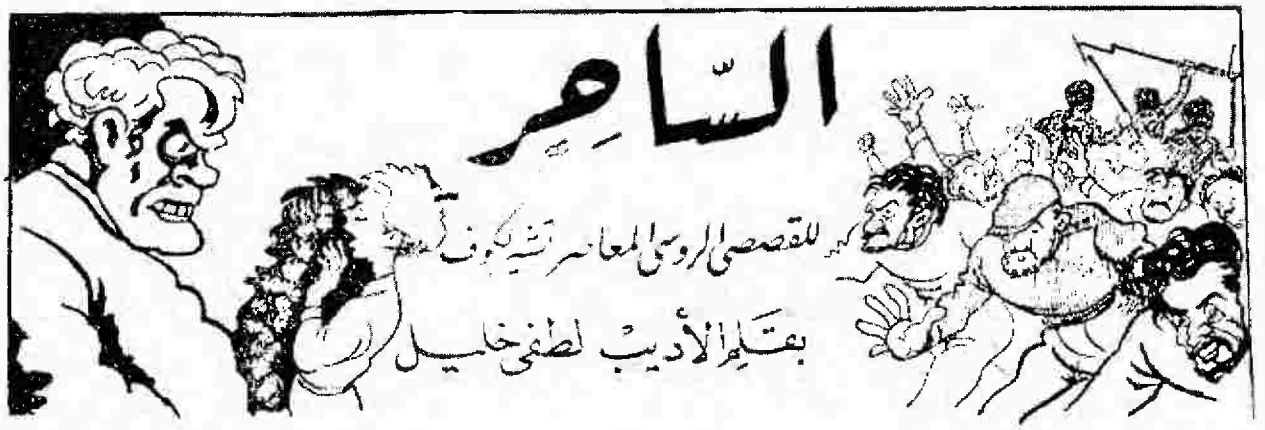

كانت المدينة فى هياج وذعر ؛ وكان الاضراب سائداً فى المعامل والمصانع قد اندلع كالنار تسعفها الريح حتى عم سائر الأنحاء ، وفرق الفرسان من الشرط تخترق الشوارع — كأنها رجال المطافىء الذين اعتادوا أن يأتوا مسرعين ، ولكن بعد فوات الفرصة — بوجوه ساهمة مهمومة ينقلون الخطى على قرع الطبول كأنهم رجل واحد والألوف يسطع من حراب بنادقهم وهم يلوحون بها فى الفضاء ، ثم ينفلت بينهم أحد القوزاق فى جلده المارى إلا من الشعر كأنه أبله مجنون فيهوى الناس بعضهم على بعض متدافعين إلى مختلف الجهات مخافة أن يطأهم بقدميه

بقيت المدينة على تلك الحال من الصخب والاضطراب ، فواجهات الحوانيت تلق بأضوائها المختلفة ، وجموع الناس تتزاحم على الأرصفة فى خوف وقلق ، والعربات تتسارع فى الشوارع فى صراع وعنف . وبات الناس يتوجسون خيفة من كل شيء ؛ فان صفر شرطى فى صفارته أو انفلت أحد القوزاق فى الشارع ، أو نزت برأس عربيد نزوة الشجار والعبث ، استولى على قلوبهم الخوف والهلع . فيندفع بعضهم إلى مكان الحادث ويولى البعض الآخر الأدبار طالباً الأمان فى مجازات الحوانيت ، ولكن الأمان من أى شيء ولم يقف أحد على السبب ؟

لقد كانت جموع العمال تروح وتغدو على الأرصفة ، وئيدة الخطى ساهمة الوجوه تتكلم فى همسات خفية مع من يقابلها من الرفاق ؛ ثم تحدق بعين المقت والحفيظة إلى ذلك الشعب المترف وهو يخطر فى لباس فاخر ويشيح بعيداً عن ذوى الخلقان الممزقة والوجوه الشاحبة المريضة والأيدى الغليظة القذرة التى تشوه جمال الشوارع النضرة التى كانت تفيض بهجة وسحراً فى ذلك اليوم الخريفى الجميل الذى كانت فيه أوراق الأشجار المغروسة على أحياد الطرق الفسيحة تلق أشعة ذهبية — كأنها تستقبل قبلة الفراق من الشمس الغاربة — على تلك العربات ذات الطلاء الوهاج ، بينما مراكب الترام بأجرامها المجاجلة ، والسيارات بأبواقها الصارخة ، والدراجات الغادية الرائحة تغمر المسالك والدروب

كانت تلك الكتل البشرية تلوح كأنها حجيج غير منتظر قد جاء من عالم آخر يخطو بين أناس مترفين ، فتجنبوا ملامسته أو الاقتراب منه خيفة أن تسهم منه لوثة أو ينالهم من أطرافه وضر . ثم ما لبثت تلك الجموع أن تفرقت أباديد كأنها

سرب من الكلاب الضالة عند ما هاجمتها فرق القوزاق الراكضة فسرى الخوف إلى جميع القلوب

— أمى : هل هؤلاء الناس عمال ؟

— نعم . نعم ... امض فى طريقك ولا تتلفت حولك

— ولكن لماذا يهرولون هكذا ؟

— خوفاً من الشرط . امض ولا تتكلم

— لماذا لا يتركهم يمشون على مهل مثلنا ؟

— إنه لا يسمح لهم بذلك

— لماذا ؟

— أوه ! أرجو ألا تثقل على . أعطنى يدك وسر فى طريقك وإلا ... فالسوط ... فأمسك « سرج » بيد أمه وأخذ يجر رجليه خلفها وقد امتلأ قلبها رعباً من تلك الجموع المتدفقة حتى سرى إلى الطفل الصغير الذى كان يحدق فيما حوله وهو ذاهل مأخوذ

— وهل هم أشرار يا أمى ؟

— من ؟ من ؟

— العمال ؟

— لا أدرى . فمنهم الطيب ومنهم الخبيث . إنهم لا يريدون أن يعملوا

— أهم كسالى يا أمى ؟

— نعم . نعم . ولكن هيا . وإلا كنت مثلهم

— أهم أنجاس يا أمى ؟

— وفى تلك اللحظة كان الفرسان القوزاق قد ركضوا بخيولهم ، وصفر رئيسهم صفيراً عالياً ولوح بسوطه فى الفضاء فدوى كالطلق النارى ارتجفت له قلب الأم ، فأسرعت الى إحدى العربات الواقفة ودفعت فيها ابنها الصغير ثم ألقت بنفسها فيها دون أن تساوم صاحبها على الأجر بل دفعته من الخلف وصاحت فى صوت مختنق خائف :

— اسرع !

— ولكن الى أين سيدتى ؟

— هناك . الى الأمام . يالله من ضيق ! أدر سريعاً

— لا تخافى سيدتى . إنهم لن يقتربوا منا .

— وما كادت العربة تنعطف الى الشارع الآخر حتى عاد الهدوء الى قلب الأم ، فعادت الى حديثها الأول :

— تذكر أنى سوف لا أدفع لك أكثر من عشرين كوبكا .

— إن هذا قليل يا سيدتى .

— إذن نزل . قف . سنأخذ الترام .

— أنصح لك أن تبقى حيث أنت يا سيدتى فان الترام سيقف بعد قليل .

— من قال هذا ؟

— إن العمال سيضربون اليوم . أعلم هذا من قبل .

وعندئذ كانت جماهير العمال قد اقتربت منهم فدفعت الأم السائق دفعة قوية ثم مضى فى طريقه ، بينما الابن ينظر إليهم فى خوف واضطراب فيلوذ بأمه شيئاً فشيئاً .

— إنى لا أفهم لماذا يهتمون بهم كل هذا الاهتمام ، فان كانوا لا يريدون أن يعملوا فليدعوهم يقطعون الشوارع جيئة وذهوباً ؛ فسرعان مايعضهم الجوع ويرجعون عن عزمهم .

فأجابها السائق : إنك على حق فى هذا ياسيدتى ، فان الجوع بغيض ثقيل . ثم أدار وجهه عنها وأخذ يعبث بشعرات ذقنه ولكنه ما لبث أن التفت إليها ثانية وقال : « يمكنك أن تروضى حيواناً بالتجويع ويمكنك أن تعملى هذا مع أى إنسان آخر ولكن الاساءة للرجل الفقير خطيئة لا تغتفر

والآن من يكسونا أيتها السيدة إذا ما بلى معطفك الثمين وتآكلت شملتي البسيطة ؟

— لا تهتم يا رجل ما دام معك المال الكافي . فان لم يشتغل عمالنا اشترينا ما يلزمنا من الخارج .

— ولكن ماذا تعملين لو وقفت قطارات السكة الحديدية ؟

— هذا لغو . إن القطارات لن تقف أبداً .

من يسمح بهذا ؟

— من يدري ؟ إنهم يشيعون أنها ستقف حالا .

فأنصت « سرج » الى الحديث الذي دار بين السائق وأمه وحار في أمر أولئك الناس الذين يطعمونه ويكسونه وفي الوقت نفسه يهربون من رجال الشرطة . لقد اشترت له أمه معطفاً جديداً للشتاء فلفه في أوراق ووضعه على ركبتيه يخفق له قلبه فرحاً كلما خطر له أن ما من إنسان يستطيع أن ينتزعه منه

— وهل صنعوا معطفي الجديد هذا يا أمي ؟

فأجابه السائق : لقد صنعوا كل شيء أيها السيد الصغير ، ما من شيء إلا وكان من فضل أيديهم .

فغضبت الأم من هذا الكلام وشدت ابنها من كمه وقالت له : اسكت . لا ينبغي لك التحدث معه . أما السائق فقد مضى يتفلسف في نفس الطريقة حتى ضاقت به الأم وصاحت في وجهه غاضبة : « وأنت أيها الرجل يجب أن تزج في السجن »

فسكت الرجل عن الكلام وألهب جواده بالسوط فأخذ يطوي الطرقات حتى وصل الى المنزل .

وهكذا رجع سرج والشكوك تملأ رأسه في حقيقة أولئك الناس الذين يدعون « العمال » فلم يكد يستقر في منزله حتى نادى أخته « سونيا » وهمس في أذنها :

— لقد رأينا اليوم بعض العمال ، لقد رأيناهم حقاً !

— ماذا يشبهون ؟

— إنهم ... حسن ... إنهم يشبهون الفلاحين

ومنذ ذلك اليوم لم يعد سرج يتحدث كلما نزل الى حديقة المنزل يلعب مع أخته إلا عن أولئك الناس الذين عطلوا المصانع وأضربوا عن العمل ، ولكنهما لم يصلا الى رأي يرتاحان إليه : أهم أشرار أم أخيار ؟ أما في المنزل فقد كانوا أشرارا وأما في الحديقة فقد كانوا أخيارا

وأخيراً ذهب سرج إلى البواب وسأله :

— ولكن هل يستطيعون أن يوقفوا مصنعاً .

— من السهل جداً يا سيدي الصغير .

— كيف يتسنى لهم هذا ؟

— بأن يدعوا البخار يخرج أو يتركوا المصنع فاغراً صفصفاً

— وبدونهم لا يشتغل المصنع ؟

— كيف يشتغل من دونهم ؟

— وبدونهم لن أحصل على معطف جديد ؟

— لن تحصل

— وسترتي الصغيرة ؟

— كذلك سترتك الصغيرة و « بنطلونك » وقميصك ، فستضطر أن تسير كما ولدتك أمك .

— عاريا ؟ ! ... أوه ! يا لك من أبله ! إن أمي تحضر لي كل هذه من الخارج .

— عليك أن تنتظر إذن حتى تصنع ، ولكن ماذا تعمل لو حدث اضراب عام في السكة الحديدية ؟

— أيمكن أن تقف السكة الحديدية عن العمل ؟

— هناك إشاعة بأن القطارات ستقف .

— وماذا يكون مصير والدى ؟ كيف يعود إلينا ؟

— أوه ! ربما يمتطى عصا .

— اسكت عن هذا الهراء . سأبلغ هذا إلى أمى التى سوف تجزيك عليه .

ثم غاب فى تفكير عميق ، وأخيراً جذب كمّ معطفه الجديد ، وقال :

— وهل حاك العمال هذا أيضاً ؟

— نعم . لقد صنعوا كل شىء . إن أمك لم تعمل أكثر من أن أوجدتك فى هذا العالم .

* * *

لم يمض على هذا يومان حتى كان الترام قد وقف عن السير ، واحتجبت الصحف عن الظهور ، وأغلقت الحمامات أبوابها وانطفأت المصابيح فى الشوارع وتعطلت القطارات عن السير ، وعم الهلع سائر المحطات حتى أخذ الناس يتوقعون شللاً عاماً فى حركة المواصلات بين ساعة وأخرى

كان مقدراً أن يصل والد « سرج » فى ذلك اليوم ، ولكنه لم يأت فقلقت الأم وأشاحت بوجهها عن كل من بالمنزل ، ولم يسمح « لسرج » أن ينزل إلى ردهة الدار ، فكان يقضى الساعات الطوال فى إحدى النوافذ يأكل قلبه شوق مُلح ليقف على ما كان يجرى فى الشوارع

— وهل سيأتى أبى حالاً إلى المنزل يا أمى ؟

— إنه لا يستطيع ذلك ، ثم أخذت تلعن الاضراب والعمال والوالد أيضاً

— أحقاً يا أماه أنهم يستطيعون ؟

— يستطيعون ماذا ؟

— أن يمنعوا السفر بالسكة الحديدية

— يظهر أنهم يستطيعون ، لا تثقل على . ثم ترقرق الدمع فى جفنيها وهاجت نفسها حنقاً وغضباً ، أما سرج فقد أدار رأسه إلى النافذة وأخذ ينظر إلى المارة فى شىء من الاهتمام والخوف ، ثم همس قائلاً :

لو استطعت لقتلتهم جميعاً ! !

ولم يأت المساء حتى كانت الشوارع قد أقفرت من المارة فأغلقت الحوانيت وأقفلت النوافذ بالمصاريع الخشبية ، وأخذ رجال الشرط والقوازق يطوفون فى الطرقات لا يقفون إلا فى الأمكنة التى أوقدوا فيها النيران ، فلم يستطع الابن أن ينام بل كان يقفز من فراشه فى موهن الليل ويتسلل حافياً إلى النافذة ليرى ما كان يجرى فى الشارع

كانت ألسنة النيران تندلع فى الفضاء وأشباح مهولة من الناس تتحرك حول النيران الحمراء كأنها وحوش ضارية تدور حول فريستها ... فيحس الابن برعدة تتمشى فى جسمه فينكمش راجعاً إلى فراشه وقد توهمهم وحوشاً جائعة سوف تنقض عليه وتشويه فى تلك النيران المستعرة ثم تلتهمه التهاما ، فيتوارى فى فراشه الناعم الدفىء وهو يصيح : أمى ! أمى ! إنى خائف مقرور .

— لماذا لم تنم ؟ ولماذا قمت من فراشك الآن ؟

— إن النار فى استعار دائم يا أمى وهؤلاء الناس لا يزالون أمام نافذتنا

— نم ولا تخش شيئاً . آه لو يأتى والدك ؟

— أمى !

— ماذا بنى العزيز ؟

— أريد أن آتى إليك . إنى خائف

— مم ، بنى المحبوب ؟

— الساحر ! :

— أى ساحر ؟

— أشكال مختلفة

— إذن فلتأت إلى

فقفز سرج من فراشه فرحاً وجرى إلى سرير أمه وقبض على يدها وقد اختبأ تحت الغطاء

ثم همس قائلاً : « إنهم يستطيعون أن يعملوا كل شىء »

وسرعان ما غابت الأم فى النوم من جديد تاركة ابنها يطل برأسه من تحت الغطاء وينظر إلى الحائط فيرى الأطياف الحمراء التى تعكسها نيران الشارع المستعرة فيستولى عليه الخوف ثانية فيلقى بالغطاء فوق وجهه ويعود يفكر فى أولئك السحرة الأخيار والأشرار وفى أولئك الناس المدعوين عمالاً :

أهم أخيار أم أشرار ؟

وفى الصباح جلس إلى المائدة ليتناول طعام الافطار ولكنه لم يجد السمك الساخن الذى اعتاد أن يراه كل يوم بل وجد خبزاً ناشفاً بارداً لا يغرى على الأكل . فصاح : هات لى بعض السمك ، لماذا تقدمين لى هذا الخبز القذر ؟ ثم أخرجه الغضب عن نفسه فألقى بسلة الخبز بعيداً دفعاً لتلك الاهانة التى لحقته من والدته :

— أشكر الله يا «سيد» سرج على هذا الخبز الآن

— ماذا ؟ عليك ببعض السمك . أمى ! لماذا لم تأت لى بالسمك اليوم ؟

— ولكن أين لنا به الآن يا عزيزى سرج وقد أغلقت كل المخابز

— لماذا ؟

— لأن جميع العمال مضربون

— العمال أيضاً ! ثم حك وراء أذنه بيده وقال:

— وماذا نفعل بدون السمك ؟

— سنفكر فى حيلة

— ولكن ألا يستطيع المحافظ أن يجبرهم على خبز السمك ؟

— لا يا عزيزى سرج ، إنهم لا يخافونه

— ألا يخافون المحافظ ؟ !

— إنهم لا يخشون إنساناً قط

— إذن فهم ذوو بأس شديد ؟

— بيدهم كل شىء . فلتأكل هذا الخبز اليابس الآن فسوف لا تجده قريباً

— إنى لا أستطيع أن آكل الخبز الأسمر

— نعم ، ولكنك ستفرح به غداً

— لماذا ؟

إلتاث الأمر على سرج فلم يعد يدرك أى نوع من الناس هؤلاء الذين لا يخافون المحافظ ولا يخشون إنساناً قط ولكنهم مع ذلك يفرون من وجوه القوزاق ورجال الشرط . ما العمل ؟ أيوقفون المصانع ويعطلون الترام والقطارات والصحف . ويسلبونك السمك ثم الخبز الأسمر ثم لا تعمل شيئاً لهم . ثم أخذ يستعيد فى ذهنه صور الساحرات والسحرة الذين قرأ عنهم فى القصص الخرافية المديدة وتذكر قلانسهم المسحورة التى تخفيهم عن أعين الناس فلا يمكنهم أن يقبضوا عليهم فاذا أمرهم المحافظ أن يعملوا لبسوا تلك القلانس المسحورة وغابوا عن العيون ! !

ثم سرى القلق من الشوارع إلى البيوت وشاع الخوف فى قلوب كانت من قبل آمنة مطمئنة فانقلب نظام الأسر واضطر أصحابها إلى تغيير عاداتهم والحد من مطاعمهم واختفت مباهج الحياة من

المدينة كلها وفقد الناس هناءة العيش . وأخيراً تسلل الخوف إلى تلك القصور المنيفة حيث كان يقيم سرج وأمثاله فأغلقت الأبواب وأحكمت الأقفال ووقف البوابون أمامها يتبادلون الحديث مع الحراس والمسس وهم ينفخون فى صفافيرهم . وفجأة انقطعت الكهرباء عن منزل سرج فنادى أمه قائلاً : « فى الكهرباء خلل يا أمى »

— أضىء حجرة الاستقبال

— وهذه أيضاً

ثم جاء الخادم وأخبر سيدته أن هناك اضرابا عاما فملينا بالشموع

وعلى هذا شمل الظلام المنزل كله لا يظهر فيه إلا أضواء الشموع الباهتة المضطربة التى كانت تنعكس على المقاعد و (البيان) فتلوح فى أغطيتها وستائرها كأنها جثث فى أكفانها قد غابت فى تفكير عميق . وبينما هم كذلك إذ جاءتهم الأنباء المزعجة يحملها الخدم الذين كانوا يتحدثون فى غرفتهم الخاصة

« إنهم يشيعون أن المياه ستنقطع ، وقد سمعنا الآن أن حفلات الجنائز ستقف ، ولن يكون لحم فى السوق غدا ، ولو استمر الحال على هذا أسبوعا واحدا فان قحطا هائلا سوف يجتاح المدينة »

استمع « سرج » الى تلك الأخبار المزعجة وهو ذاهل مشدوه ، فقد ظهر له أن العامل هو الممثل الأول لهذا الدور ومرعان ما انبثق فى ذهنه أن العامل ما هو إلا ساحر ، ساحر ذو قوة غريبة يمكنه أن يأتى كل شىء . فلو أراد لاستأنفت القطارات سيرها ورجع أبى الى المنزل وعادت الكهرباء تضىء كما كانت ، فيعود للغرف بهاؤها ورواؤها . ولو شاء لكان لدينا الآن كمك كثير ساخن ، وإن لم يشأ فلن يجرى الماء فى الأنابيب ولن يكون هناك شاى أو حمام . إنه لا يخاف إنسانا ولا يخشى سلطانا . يا له من ساحر ! !

لقد كان الصبى واثقاً من هذا فلم يمض أسبوعان حتى حدثت العجائب فى يوم واحد . فقد استأنف الترام سيره وفاضت الشوارع بالأنوار الكهربائية الخاطفة وعادت الصحف الى الظهور ورجع الوالد الى بيته فركب معه إحدى العربات اخترقت بهما الشارع العام فرأى السحرة قد تجمعوا كتلا زاخرة مبتهجة يحملون الأعلام الخفاقة وينشدون الأناشيد العذبة دون أن يتصدى لهم شرطى أو يروعهم قوزاق

فتاق الطفل الخروج الى الشارع ليراهم بنفسه فقال :

— أبى ! لقد عاد السحرة يخطرون فى الشوارع دعنى أخرج لأراهم

— إنك لا تستطيع

— إنهم ليسوا أنجاساً بل أطهار الآن . أليس كذلك يا أبى ؟

ثم مضت عدة شهور كان فيها كل شىء حسنا فعاد للبيت مرحه القديم وجنته المفقودة . ثم تصادف يوما أن ذهب الوالدان الى إحدى الملاعب وخرجت المربية لقضاء حاجة لها ، وانصرفت الأخت الى عرائسها ولعبها بينما الجدة كانت لاتزال طريحة الفراش . فأحس الطفل بشىء من الضيق إذ لم يكن هناك ما يلهيه أو يسرى عنه فأخذ ينتقل من غرفة الى أخرى فى تراخ وكسل

— جدتى ما ذا أعمل ؟ ؟

— فلتدلك ساقى ، فان الألم عاودنى فيها

— إنى لا أحب هذا . فهو عمل تافه ثقيل .

ثم تركها وانصرف الى أخته ولكنه لم يكد يرى عرائسها حتى تناول واحدة منها وكسر ذراعها وولى هاربا الى المطبخ ليرى الطاهية الجديدة ، ولكن الخادمة لم تسمح له بالدخول فقال لها :

— ولكن ماذا أعمل إذا كنت وحيدا ؟

— ليس فى المطبخ ما تلهو به

— ولكن من ذا الذى يتكلم هناك ؟

— إنه زوج الطاهية

— إنه مُسَلٍّ

— لماذا ؟ إنه رجل عادى . عامل

— أزوج الطاهية عامل ؟ !

— نعم

— ساحر ! يجب أن أدخل اليه

— لا . انى أشكوك الى المربية وأخبر أمك بذلك إن فعلت هذا

— إذن فأنت كاذبة . سأخبر أمى أنك أكلت القشدة

إنك كاذب فى هذا فقد التقطت ذبابة فقط

ثم تشاجرا معاً ، ولكن الطفل لم يجرؤ مع ذلك على دخول المطبخ فبقى واقفاً ببابه مترددا فى الأمر حتى جاءت الخادمة وفتحت الباب فأسرع يختلس النظر اليه فاستطاع أن يسمع صوت الساحر ولكنه لم ير الرجل نفسه ؛ ثم استبد به الشوق الملح والرغبة القوية ، فعزم أخيراً على الدخول . ولم يكد يرى الخادمة تبعد قليلاً حتى صاح : « أشكوك اللم » ثم اقترب من الباب وأخذ يفتحه شيئاً فشيئاً بيد المكنسة حتى انفتح على مصراعيه ولكنه لم يستطع أن ينظر إلى المطبخ دفعة واحدة ، فوقف قليلا مهطع الرأس حبيس النفس حتى استجمع من شجاعته وفتح عينيه فرأى رجلا قد ارتدى ثوبا بالياً وجلس على مائدة صغيرة يلتهم طعاماً ساخناً يتصاعد منه البخار وهو يتلفت حوله فى خوف وحذر ، وقد أمسك الطبق بيده كأنه يخشى أن ينتزعه منه غيره . فاشرأبّ الطفل بعنقه ثم تلفت حوله وقال : « ولكن أين الساحر ؟ » لم يكن هناك غير الخادمة وهذا الرجل ؟

أيحتمل أن يكون هذا الرجل هو الساحر الذى يخافه ؟

ثم قويت رغبته فى رؤية ذلك الساحر ، فاندفع إلى المطبخ ، فقفز الرجل واقفاً وقد سقطت اللقمة من يده ، فقالت الخادمة :

لا شىء ، إمض فى أكلك . فلن يذيع السيد الصغير شيئاً

فأجاب مرتج . أى شىء ؟

— لا تخبر أباك أو أمك بأمر هذا الرجل الذى يتناول الحساء . إنها فضلة من طعام قديم !

— حسن

إنه جائع فيجب أن ترحمه أيها السيد الصغير

— من ؟

— إنه : هذا الرجل زوجى

— زوجك ؟

فألقى عليه الطفل نظرة شزراء وهو واقف فى قوام يخيل ! يرتجف خوفا وفرقا ، ولكنه ظنه ساحراً حقيقياً قد لبس هذه الصورة الزرية الكئيبة ثم قال كذلك أنت . إنك ساحر ... إنى أعرفك

— من ؟

— أنت ! أنت !

— إنى عامل ياسيدى الصغير ولكنى لا أجد عملا

— ولكنك ساحر ... إنى أعرفك . تستطيع

أن تعمل كل شيء .. لقد أتيت كل تلك الأضرار ، ولكن حذار أن تعود إليها ثانية . إن ضوء الشمعة باهت كئيب ولا أحب إلا الكعك مع الشاى

— إنى لم أعمل شيئاً يا سيدى الصغير وسأترك هذا المكان حالاً

— ولكنك غير نحيف كما كنت أظن . لقد حسبتك هائل الجسم مارد القامة عابس الوجه . قل لى : ألم تسحر نفسك ؟

— أتسخر منى لأنى لا أجد فتات الخبز . حرام يا سيدى حرام

— ولكنى كنت أظنك أعظم من هذا وأنك مرح طروب فرأيتك ترتعد فرقا وأنت تتناول طعامك . إنى لا أخافك بعد ذلك

ثم انسل الطفل إلى الممر العام ووقف قليلا ، وهو متأهب للجرى إذا هم الساحر بمطاردته ، ولكن لم يحدث شيء من هذا بل كان هناك رجل واقف بجانب أحد الجدران يشهق شهيقاً عالياً ثم يجفف عينيه بطرف كمه . فصاح

ساحر ويبكى !! إنه الجزاء العادل !!

— لماذا لم تدع أبى يعود إلينا ؟ لماذا قطعت عنا الكهرباء ؟

— لماذا حرمتنا من الكعك الساخن ؟

— فلتنل الآن جزاء ما قدمت يداك

ثم صرخ صرخة عالية دوّت فى جميع أنحاء المنزل

مرحى . مرحى ..

ثم أسرع إلى مربيته فى نشوة المنتصر الفائز وهو يقول :

لست أخافه بعد اليوم !!

نظمى خليل

شركة مصر للغـــزل والنســـج

تخفف عنكم وطأة حرارة الصيف المقبل

بما تنتجه لكم

من ملابس قطنية خفيفة وجميلة وبأسعار معتدلة

أطلبوا منسوجاتها من

شركة بيع المصنـــوعات المصرية

إنها إحدى مؤسسات بنك مصر

صيد السمك

للكاتبة الانجليزية سر سفيلد

بقلم الأديب حسن جشي

فى صباح باكر من أيام يناير ١٩٣٠ غادرت أنا وأخى وخمسة أصدقاء لنا مدينة سنجاو، ووجهتنا متشيجان لصيد السمك. وقد يلوح للمرء أن من الغريب أن يذهب أحد فى شهر يناير للصيد فى جو كجو متشيجان هذا، ولكن ينبغى أن أذكر أن كثيرين يكسبون قوت عامهم خلال هذا الشهر.

كان الأفق منيراً، والسبيل واضحة، ومع أن الأرض كانت مغطاة بالجليد؛ الا أن الحرارة كانت فوق الصفر ببضع درجات، والجو دافئا، وتدثرنا بالملابس الغليظة، واستصحبنا معنا صناديق الذخيرة، وقد وضعنا القهوة الساخنة فى «الترموس»

وإذ وصلنا خليج سجناو وهو البقعة التى اخترناها للصيد وجدنا الجليد يتوغل قرابة ميل فى اتجاه البحيرة، فتركنا عربتنا على الشاطىء، وحملنا منها بعض الذخيرة، جاعلين وجهتنا حافة الجليد؛ ومضى الرجال يظرحون شباكهم على بعد مائة قدم؛ أما أنا فقد تدثرت بالحرام، وجلست على قطعة من الثلج، وأخذت فى مطالعة كتاب كنت قد أخذته معى

وأقبل الرجال ظهراً، وقد أصابوا صيداً كبيراً وكان كل منهم قد اشتد به الجوع، وإذ كنت المرأة الوحيدة بينهم، فقد قمت باعداد الطعام وتهيئته، ثم جلسنا حوله نلتهمه، متجاذبين فيما بيننا أطراف الحديث، أما أنا فقد جلست أنصت اليهم، إذ كانوا يتكلمون عن تجاربهم فى الصيد ومهارتهم فيه، مما لايدع مجالاً لامرأة. ثم عادوا إلى الصيد؛ وإذا بالشمس تختفى؛ ثم اربد الأفق وتجهمت السماء، وتراكمت السحب، وهبت ريح عاصف، وأخذت قطع الثلج يصطدم بعضها ببعض فى صوت قوى أرعبنى. ولما أفصحت لأخى عن مخاوفى ضحك منى، وسخر بى وطلب الى أن أخرج ما اصطاده من شبكته، حتى أشغل عن هذا الفزع. ولما أتممت ما وُكل إلى أداؤه، اقترح أن أقوم بنفس هذا العمل الآخرين.

الكاتبة

كان أربعة رجال منهم قد جلسوا على يسار أخى

(توم) متحدثين ؛ ولما أتممت عملى مضيت ناحية الصياد الأخير ويدعى ويلاند ، وكان صديقا قديما لى فجلست بجواره ، وأخذنا نتحدث فيما بيننا ، ثم أقبل « توم » واشترك فى الحديث ؛ وأخذ الجليد يصطدم بعضه ببعض ؛ وبالرغم من ضحك رفاقى كنت خائفة ، إذ لاحظت أن الريح أخذت تشتد عن ذى قبل ، وتموى هدارة صاخبة ؛ وفى الحال أخذت كتل من الثلج هائلة الحجم تندفع بشدة وتهوى الى البحيرة ، فاقترحت على توم أنه ربما كان الأجدى علينا أن نغادر هذه البقعة ، ولأول مرة فى حياته خضع لطلبى ، وأخذنا نعمل جميعا معا فى نقل ذخيرتنا .

وانحنيت لالتقاط بضع سمكات حينما سمعت صوت اصطدام هائل ، فانتصبت ، فاذا بى أرى لشدة هلعى واضطرابى شريطاً أسود من الماء قد فصلنا نحن الثلاثة عن الأربعة الآخرين ، فصرخت بأعلى صوتى ، واذ ذاك أبصرت قطعة الثلج التى نحن وقوف عليها ، قد أخذت تتحرك ناحية البحيرة ، فقفز توم وويلاند فى مكانهما ، واندفع الأربعة الآخرون يجرون هنا وهناك وينصحوننا بما لا طائل تحته ... كان طول كتلتنا الثلجية مائة قدم ، وعرضها سبعين تقريباً ؛ فجرى توم الى حافتها ، وحاول أن يلقى بأحد أطراف شبكة صيده الآخرين ولكن لم تساعده قواه وما كسته الريح ، وازدادت مساحة الانفصال بيننا وبينهم ! فرمى بالشبكة ثانية ففشل أيضا ، اذ وقع فى الماء ، وأحاطنى (ويلاند) بذراعه ، وقد اصفر وجهه وجذبنى الى وسط الكتلة الثلجية ، فقد كان ذلك كما يظهر آمن مكان ، إذ كانت الحواف تتهشم قطعا قطعا ؛ وأخذت الريح تشتد عنفا ، وتدفعنا سريعا الى ناحية البحيرة ، وكان الهلع قد اشتد بى فى هذه اللحظة ، ولكن زميلى أقبلا علىّ يشجعاننى ، فأخذا يشيران الى الشاطىء حيث كان رفيقان من رفاقنا يدفعان العربة ، ولكن الجو أخذ يربد عن ذى قبل ، وعم الظلام حتى لم نستطع أن نتبين أحداً ، وأقبل الليل ورأيت أن حجم كتلتنا الثلجية قد تضاءل الى نصف حجمها الأول ، وابتلت ملابسنا بما كانت تسفينا به الريح من ماء ؛ ولم ألبث أن شعرت بالبرد القارس فأجلسنى توم وويلاند بينهما ، ودثراني بغطائين مما أحضرته ؛ أما رفاقنا الآخرون فقد اختفوا تماما ، ولم يدع الرجلان وسيلة من وسائل التسلية إلا حاولاها معى ، وأقبلا يطمئنان خاطرى بأن لا بد من مجىء قارب نجاة بعد قليل . وأخذ الثلج يتحرك بشدة فزاد ذلك فى رعبنا ، واشتد البرد ؛ ولم تلح أى بادرة من بوادر النجاة . ثم أشعل توم عود ثقاب ونظر فى ساعته ، فاذا نحن فى منتصف الليل ، فكان لنا فى هذا الموقف ثمانى ساعات . وحاول (ويلاند) إلباسى معطفه الجلدى ، فأبيت ذلك ؛ ومن ثم سار وسط الحلوكة محاولاً معرفة ما بلغته الكتلة من مساحة ، ولم أستطع أن أرى أكثر من ستة أقدام أمامى ؛ غير أنى لاحظت أنه سرعان ما رجع إلينا ، فسألته عما صارت إليه الكتلة وما بقى من الثلج ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، فتخاذل جسدى كأنما خدّر ، وشعرت كأنى فى غيبوبة .

وعلى حين فجأة صرخ توم واختطفنى ثم دفعنى عن نفسه إلى الجانب العكسى ؛ فدُرْتُ عدة مرات حول نفسى قبل أن أتمكن من الوقوف ، ثم التفت زاحفة إليه ألهث ، وقد أبصرته منبطحا على الثلج ، وأمامه الماء ، ولم أعرف إذ ذاك ما كان

يفعله توم ؛ ولما اقتربت من الحافة أكثر ولمسته قال : « هاتى يدك يا بنتى ! »

فمددت إليه ذراعى ... وإذ ذاك عرفت ما كان يعمل

لقد كان يحاول إنقاذ ويلاند ؛ ذلك أن قطعاً من الثلج قد انفصلت وانزلقت فى الماء وعليها (ويلاند) ؛ فجذبنى أخى ، ولما عرف أنى أصبحت بمأمن من الغرق مدّ يده لجذب زميلنا ، وحاولت أنا الأخرى انقاذه ، ولكن لم أتبين يده أو جسمه لشدة الظلام المتراكم بعضه فوق بعض ، واستطعت أخيراً أن أمسّ أصبعه ؛ ولقد كان صراعا عنيفا لا أستطيع وصفه .

ونجحنا أخيرا فى جذبه ، وأحسست كأن ذراعىّ سينفصلان عن جسدى ، وأخذ الثلج يتراجع الى الوراء ، ورقد ويلاند أمامنا كأنه الجثة الهامدة ؛ وظل ثلاثتنا بضع دقائق واجمين صامتين من شدة الفزع والرعب ؛ ثم احتملناه الى الكتلة الجليدية ودثرناه بالأغطية ، ولما لم يُجْدِ فيه هذا الملاح ، أخذ توم فى تحريك ذراعيه بقوة ، يدفعهما الى الأمام والخلف ليسرى الدم فى عروقه . وإذ ركعت بجانبه تبينت أن الماء قد أحاط بنا احاطة السوار بالمعصم ، ولم يبق منَ الكتلة الثلجية الطافية سوى مساحة لا تتجاوز عشرين قدما ، فافزعنى هذا ، والتفت الى (ويلاند) وقد غشى عليه ، وصرخ أخى فجأة وقد قفز قفزة عالية فالتفت فاذا نور ينبثق من مشعل سفينة وهو يتلألأ وسط هذا الديجور القاتم وأخذنا ننظر إلى هذا الضوء فى لهفة وشوق وهو آخذ فى الاقتراب منا لحظة بعد أخرى ، ومر أمامنا ست مرات ، وبعد لحظات قلائل أنزل زورق النجاة وسار تجاهنا ، وقفز منه رجلان نحونا ، ودثرانى بالأغطية ، وحملانى الى الزروق ثم عادا لويلاند وتوم

وسار بنا الزروق الى الباخرة ، فأبصرت جزيرتنا الصغيرة وقد خلع عليها الضوء لونا شفقيا بهيجا ؛ ولم أشعر بلذة ما فى حياتى كلذتى وأنا أرشف القهوة الساخنة التى ناولنا إياها الضابط فى حجرته بالسفينة ؛ وشربت ثلاثة أكواب منها ، فأحسست بالقوة تسرى فى جسدى ، ثم شعرت برغبة شديدة فى النوم ، ولما استيقظت بعد أربع عشرة ساعة أبصرت نفسى على سرير فى إحدى المستشفيات . أما ويلاند فقد استعاد صحته برغم ما حاق به من أهوال بعد يومين . أما أخى فقد كان أسرع منه

ومنذ تلك المخاطرة ، قصرت صيدى للسمك على المياه الضحلة خلال شهرى مايو ويونيو ؟

مس مبنى

اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل السادس

وفى اليوم التالى ذهبت قبل المشاء الى غابة بولونيا وكانت السماء متلبدة بالغيوم : ولما وصلت الى باب مالو ألقيت عنان فرسى على عنقه ، وذهبت تائها بين الأشجار مستغرقاً أستعيد أقوال ديجنه فى ذهنى ، وما توغلت فى أحد المنعطفات حتى لاحت لى عربة تستقلها إحدى صديقات خليلتى ، فمدت إلىّ يدها لتصافحنى ثم دعتنى الى تناول العشاء معها إذا لم يكن من مانع لدى

وكانت هذه المرأة — وتدعى مدام ليفاسور — قصيرة بدينة شقراء ، وكنت أنفر منها دون ماسبب ، ولكننى لم أملك نفسى من قبول دعوتها ، لأننى كنت أتوقع حديثاً معها عن عشيقتى ، وأمرت رفيق السائق بقيادة فرسى فذهب به ، وجلست أنا قربها وعدنا الى باريس

وبدأ المطر يتساقط ، فأنزلنا الغطاء وأصبحنا فى عزلة ، وقد ساد علينا السكوت ، وكنت أنظر اليها فأشعر بحزن عميق ، لأنها لم تكن صديقة عشيقتى فحسب ، بل كانت أيضاً مستودع أسرارها ، وكثيراً ما كانت تمضى معنا ساعات السمر فأستثقلها وأتمنى أن تخلى لنا المكان . ولعل نفورى منها تولد من صبرى على فضولها . وما كان تساهلها معى ومع عشيقتى ، بل وما كان وقوفها مراراً موقف المدافع عنى تجاهها ، ليمحو سيئة هذا الفضول ، فكنت أراها قبيحة ثقيلة . ولكننى أنعمت النظر فيها هذه المرة فلاحت لى وعليها مسحة من الجمال ، فكنت أحدق فى يديها وأثوابها فأشعر بأنها تحرك ساكنا من فؤادى ، وكانت هى تحدق فىّ فلا يخفى عليها أمرى وما يفعل التذكار بعواطفى ؛ وقطعنا مسافة الطريق وأنا أنظر اليها وهى تبتسم لى . ولما بلغنا المدينة قالت : — وأخيراً . فقلت : — أخبريها إذا شئت ، وانهمر الدمع من عينى

وبعد أن تناولنا المشاء جلسنا أمام الوقد ، فقالت : أقضى الأمر وانقطع كل رجاء ؟ فقلت : وا أسفاه ! إن الأمر المقضى إنما هو فجيعتى ، وستودى هذه الفجيعة بى . ولا أطيل بوصف حالى : لقد امتنع على أن أحبها وأن أحب سواها وأن أعيش بلا حب

واستلقت على مقعدها متراخية وقد لاحت على وجهها علائم الأشفاق ، واستغرقت لحظة كأنها تناجى نفسها وتنصت من قلبها الى أصداء بعيدة ، ثم مدت الىّ يدها فاقتربت منها فقالت : — وأنا أيضاً قد أصابنى ما أصابك ، وتهدج صوتها فقطعت حديثها

إن للمحبة أخوات عديدات أجلهن الشفقة . صافحت هذه المرأة وتدانينا حتى كاد أحدنا

يلتصق بالآخر ، فبدأت تتكلم مثنية على عشيقتى تنتحل لها الأعذار وتوجه إلىّ كلمات الاشفاق ، وازداد حزنى فلم أجد ما أجيبها به ، وذهب بها الحديث الى التكلم عن نفسها ، فأمرّت إلى أن رجلا أحبها ثم تركها منذ أمد غير بعيد بعد أن ضحت فى سبيله صيتها والكثير من ثروتها ، وأن زوجها وهو رجل حقود كان يتهددها . وكانت تذرف الدموع وهى تسرد حكايتها حتى نسيت همى بهمها ؛ ثم استطردت فقالت إنها تزوجت مرغمة فقام النضال طويلاً بين عقلها وعواطفها ، وهى الآن لاتأسف على شىء أسفها لبقائها محرومة من الحب . ولاح لى أنها كانت تلوم نفسها لأنها لم تعمل على الاحتفاظ بقلب عشيقها ، إذ عاملته بشىء من الاستخفاف

وعادت فاستسلمت للصمت بعد أن فرّجت عن قلبها فقلت لها :

— ما هى بالصدف العمياء تلك القوة التى قادتنى الى غابة بولونيا هذا الصباح . إن الآلام البشرية أخوات تآلهات ؛ ولعل هنالك ملاكا كريما يضم هذه الراحات المرتجفة المبسوطة نحو الله تتوسل الى رحمته . لا تندمى على ما بحت لى من سرك ، فما للانسان أن يندم على دمعة ذرفها أمام أى مخلوق كان . وما سرك الذى أودعتنيه إلا دمعة سقطت من عينيك فاستقرت فى فؤادى ، فاسمحى لى أن أرجع إليك أحيانا لنتشاكى ونتألم معاً

وشعرت بعطف شديد يجذبنى الى هذه المرأة وأنا أتكلم حتى رأيتنى مكباً على وجهها أقبلها ، وما خطر لى أنها ستستاء منى ؛ أما هى فبقيت بلا حراك كأنها لم تنتبه الى ما أفعل

وكان يسود سكوت عميق حول البيت التى تقطنه هذه السيدة ، إذ كان يسكن أحد أقسامه مريض ، ففرش التبن على الطريق المجاورة منعاً لفرقعة العربات ، وكنت أنا مطوقاً هذه المرأة بذراعى وقد أذهلتنى عاطفة افتسام الأشجان ، وطالت محادثتنا فكدنا نتشاكى فأشعر أن بين آلامى وآلامها شيئاً من اللذة ، وأسمع صوتاً مواسياً كأنه نشيد سماوى يتعالى من اثنين متوجعين . وكان دمعانا يمتزجان وأنا مكب عليها فما كنت أرى غير وجهها ، ولكنى عند ما تراجعت عنها رأيت أنها كانت فى هذه الأثناء رفعت إحدى رجليها وأسندتها على رف الموقد فانسحب رداؤها حتى بدت ساقها عارية

ولما رأت اضطرابى لهذا المشهد لم تغير وضعها فأدرت ظهرى ليتسنى لها ستر ما انكشف منها فتجاهلت الأمر . فوقفت الى الموقد أتفرس فيها واجماً ؛ وإذ اتضح لى أنها مدركة ما تفعل أدركت بدورى أن هذه المرأة قد شاءت أن تلعب دورها لأغوائى ، فما كانت دموعها وما نقلته عن آلامها إلا اختلاقات تستكمل بها فنها

أخذت قبعتى وتوجهت الى الباب ، فأرخت رداءها على مهل ، فلم أنبس بكلمة بل أومأت مسلماً وخرجت

الفصل السابع

وعند ما رجعت إلى مسكنى وجدت وسط غرفتى صندوقاً كبيراً . وكانت إحدى عماتى انتقلت إلى ربها ولم تكن حصتى من ميراثها

ذات شأن ؛ فوجدت فى الصندوق أدوات وأشياء مختلفة بينها عدد من الكتب القديمة علاها الغبار . وكنت إذ ذاك أتعلل ضجراً ، فرأيت أن أتصفح بعض هذه الكتب ، وأكثرها روايات نشرت فى عهد لويس الخامس عشر . ولعل عمتى وهى من الصالحات العابدات كانت ورثتها من أقارب لها فاحتفظت بها دون أن تطالعها ، لأن هذه الكتب كانت عبارة عن مجموعة دروس فى الغواية والفحشاء

أعهد بنفسى ميلا لا قبل لى برده إلى تحليل جميع ما يقع لى من حوادث سواء أكانت هامة أم تافهة فأطمح دائماً إلى وجود ارتباط بينها فأجىء بتسلسل لها وأنظمها فى سلك واحد كعقد لا بد من ضم شتات حباته . ولعلنى ذهلت مع الوهم إذ أعتقد بوجود علاقة بين حالتى ووصول هذه الكتب ، فاندفعت إلى مطالعتها مبتسما وفؤادى ينفطر حزناً . وكنت أناجى هذه الصفحات قائلاً : إنك دون سواك تعلنين حقيقة الحياة وتجسرين على القول بأن لا حقيقة إلا بالتمتع بالملذات والمراوغة والفساد . كونى لى نعم الصديق وانفثى على جراح نفسى سمومك الكاوية فأتعلم منك أن أؤمن بما تعلنين

وهكذا بدأت باقتحام المسالك المظلمة مهملاً مطالعة دواوين أحب الشعراء إلى ، فملا الغبار كل كتاب كنت أجالسه من قبل كأستاذ اتلقن الحقيقة عنه . وكثيراً ما أخذتنى سورة الغضب فدست على هذه الكتب بقدمى كأننى أنتقم من مؤلفيها فأقول لهم :

— أيها التائهون فى الأحلام ، إنكم لا تعلمون الناس غير الألم . إذا كنتم عرفتم الحقيقة فما أنتم إلا منمقو عبارات مخادعون . وإذا كنتم جهلتموها فما أنتم إلا بلهاء ... وفى الحالين أنتم كاذبون لأنكم أوجدتم من قلب الانسان أساطير ضلال وأوهام . مهلاً ! ! إننى سأدفع بكل ما كتبتم إلى ألسنة اللهيب

وما كنت أجد من منجد لى فى ثورتى غير دموعى فأتيقن وأنا أسكبها أن الحقيقة التى لا حقيقة سواها انما هى الأوجاع والآلام . فأهتف قائلاً : أجيبينى أيتها العبقريات المنقسمة على الخير والشر لأعرف إلى أية ناحية أتجه . أقيمى بينك حكما يفصل فى خلافك فأهتدى من حكمه إلى المنهج السوى

وتناولت توراة قديمة كانت على الخوان ففتحتها قائلا : أجيبنى أنت أيها الكتاب المقدس وامددنى بأحكامك ، فوقع نظرى على الاصحاح التاسع من سفر الجامعة فاذا فيه :

« لأن هذا كله جعلته فى قلبى وامتحنت هذا كله . إن الصديقين والحكماء وأعمالهم فى يد الله . الانسان لا يعلم حباً ولا بغضاً . الكل أمامهم . الكل على ما الكل ، حادثة واحدة للصديق والشرير ، للصالح وللطاهر والنجس ، للذابح وللذى لا يذبح ، كالصالح كالخاطئ ، الحالف كالذى يخاف الحلف ، هذا أشر كل ما عمل تحت الشمس . إن حادثة واحدة للجميع وأيضاً قلب بنى البشر ملآن من الشر ، والحماقة فى قلبهم وهم أحياء وبعد ذلك يذهبون إلى الأموات »

ما يقول الفلكيون عندما يتنبأون عن مرور مذنب فى ساعة معينة ، وهو الكوكب التائه فى الأفلاك ؟ ما يقول علماء الطبيعة عندما يرون حيوانات سابحة فى قطرة ماء ؟ أيعتقدون بأنهم هم مخترعو ما يتجلى لهم وأن مرصدهم ومجهودهم يضمان للكون نواميسه ؟

ما قال فى نفسه يا ترى من وضع أول شرعة للناس عند ما فتش عن حجر يضعه أساساً لبناء المجتمع فهتف به هاتف من أعماق أحشائه يقول له : إن الحق للقوة . أمن أوجد العدل هو هذا المشترع يا ترى ؟ وهل اخترع العار أول رجل اقتطف الثمر من أرض جاره وأخفاه تحت ردائه متلفتاً يميناً وشمالاً وقد دب الرعب فى قلبه ؟ وما قولك فى صاحب الحقل الذى سُرقت أثماره فحرم نتاج جهوده ؟ يلتقى السارق فلا يرفع عليه يداً بل يشمله بعفوه ويقول له : إليك بما تريد من أثمار حقلى ، فيرد الشرّ بالخير ثم يرفع رأسه الى السماء شاعراً بارتجاف فى قلبه وبدموع فى عينيه وبخشوع يطوى ركبتيه . أترى هذا الرجل أول من اخترع فضيلة المعروف ؟

يا لله ! لقد سمعت أذناى امرأة تكلمنى بالحب ثم تخوننى ، وسمعت أيضاً رجلاً يكلمنى عن الصداقة وهو يشير إلى بالانغماس فى حمأة الدنس ، ورأت عيناى امرأة تستخرط فى البكاء ثم تطمع فى مؤاساتى بمضلات ساقها ، وهذه التوراة التى تحمل اسم الله تردّ على سؤالى قائلة : — (من يدرى ؟ وأية أهمية لكل هذه الأمور ؟)

وسارعت الى غرفتى المفتوحة أنظر الى الفضاء الفسيح الباهت فى وجومه صارخا : — أصحيح أن العدم وراءك ؟ أجب أيها الفضاء ، أفليس فيك شىء سوى الأوهام تدفع بها الى صدرى وقد مددت اليك ذراعىّ ؟

وكان الصمت العميق يسود جميع ما تطلّ نافذتى عليه

ومرّ طيرٌ بجناحيه السوداوين ذاهباً فى الهواء يصراخ يشبه الأنين فاتبعته بعينى وهو يغرق كالسهم إلى الأفق البعيد ، ثم مرت فتاة صغيرة فى الشارع وهى تغنى

الفصل الثامن

ومع هذا فقد أبت نفسى أن تستسلم لحياة اللهو والاستهتار إذ كنت أتمثلها حالكة مفجعة ، فقررت أن أحاول اجتنابها ، وهكذا اقتحمت كثيراً من الآلام ، وساورتنى مرهقات الأحلام . ولو لم يكن غير حرارة الشباب ما يحول دون شفائى لكفتنى أوجاعاً وجهاداً . فقد كنت أنى توجهت وبلا عمل شغلت نفسى لا أفكر إلا فى النساء . وإذا نظرت إلى إحداهن شعرت بهزة أنتفض لها انتفاضاً . ولكم أفقت من نومى وجسدى يتصبب عرقاً ، فأترامى على جدران غرفتى بشهيق مختنق يطلب الهواء !

لقد كان من خير ما أسعدت به وقلما يسعد الشبان بمثله ، أننى أسلمت عفتى للحب ؛ غير أن هذا الحظ قضى على بأن أشرك طوال حياتى كل شهواتى بعاطفة الغرام . وذلك ما كان يدفع بى إلى الهلاك ، فكنت وقد تسلط على التفكير المستمر بالمرأة لا أملك خيالى من الجموح ليلاً ونهاراً فى مآزق الحب الضلول وفى مهاوى خيانة النساء

امتنع علىّ أن أتصور إمكان الوصال بلا حب ، فكنت لا أنقطع عن التفكير فى المرأة قاطع الرجاء من وجود الحب الصحيح ، فذهبت الآلام فى نفسى مذهباً أورثنى شيئاً من الخبل ، فكنت أشتهى تارة أن أعذب جسدى أسوة بالرهبان لأميت شهواتى ، وتارة أريد أن أندفع إلى الشارع

أو الحقول أو أى مكان آخر لأنطرح على قدمى أول امرأة أصادفها مقسما لها أننى أحبها حباً أبدياً

والله يعلم كم حاولت أن أسلو لأنال الشفاء ، فكان أول ما لجأت إليه انعزالى عن العالم جرياً مع نفورى من مجتمع رأيت جميع الناس فيه يشبهون عشيقتى رزيلة وختـــلا . فرجعت إلى ما كنت أهملت من دروسى فتوغلت فى مجاهل التاريخ واستغرقت مع الشعراء الأقدمين كما عدت أيضاً إلى درس التشريح

وكان يقطن الدور الرابع من مسكنى شيخ ألمانى واسع الاطلاع ؛ فألجأته بالرغم من محبته للوحدة إلى تدريسى اللغة الألمانية ، فبدأ عمله بكل جد وإخلاص ، ولكنه مالبث أن اصطدم بفكرى المشتت ، فكان وأنا أجلس اليه تحت نور مصباحه الضئيل ، يضع كفيه على كتابه ويشخص بى متجلداً متدهشاً ، وأنا سابح فى أحلامى لا أشعر لا بصبره ولا بإشفاقه على حالى وأخيراً قلت له : أنت أطيب الناس قلباً ، ولكننى أرى العبث فيما تحاول . دعنى لما قدر لى ، فما أستطيع أنا ولا تستطيع أنت تبديل هذا المقدور

وما أدرى أأدرك الرجل ما أعنى أم فاته ما ألمح عنه ؛ غير أنه صافحنى بحرارة ، ولم يعد يذكر لى اللغة الألمانية ودرسها

وبدأت أشعر أن العزلة لن تسوقنى إلى الشفاء بل إلى الهلاك ؛ فتحولت عنها إلى طريق أخرى وهجرت المدينة إلى الحقول شاغلاً نفسى بالصيد متوغلاً فى الغابات أقطعها خبباً على ظهر جوادى ، ومارست المبارزة بالسيف مجهداً نفسى حتى الاعياء ، فما كنت أعود المساء إلى مسكنى إلا لأنطرح على فراشى وروائح البارود والاصطبل تنبعث من أثوابى ، فأستر وجهى بلحاف هاتفاً : إليك عنى ، أيها الشبح ... أفما أستريح منك ليلة على الأقل ؟

وما كانت جميع هذه المحاولات لتجدينى نفعاً لأن العزلة أسلمتنى إلى الطبيعة فقذفتنى الطبيعة إلى الحب

وعند ما كنت أرتاد قاعات التشريح ، كنت أرى نفسى محاطاً بالجثث فأمسح يدى بمئزرى الدامى فيعلو وجهى الاصفرار ، وأشعر بأننى أختنق من الروائح الكريهة المنبعثة من الأشلاء الفاسدة ، فكنت أعرض عن النظر إليها لأتمثل أمامى الحقول الخضراء تموج سنابلها ، والمروج يفوح عبيرها فى سكون الغسق ؛ فأقول فى نفسى : لن أجد فى العلم سلوتى ، فإننى باستغراقى فى هذه الطبيعة التى لا حياة فيها سأموت كمن أنقذ من لجة البحر فالف بجلد حيوان سلخ حديثاً لاستعادة الحرارة المفقودة . لقد قضى على بألا أشفى ، فحسبى أن أموت هنالك فى الحقول تحت أشعة الكوكب المنير

وكنت أنطلق على صهوة جوادى قاصداً متنزهات سقر وشافيل ، فأترجل هنالك لأنطرح على مرج نضير ، أو لأتوه فى واد مقفر ، فما كنت أسمع من الأدواح والمروج إلا صوتاً واحداً يقول لى : ماذا أتيت تطلب هنا . . . إنا نرتدى الحلل الخضراء ، وما الخضرة إلا رمز الآمال

فكنت عندئذ أفزع إلى المدينة لأتوه فى أزقتها المظلمة فأتطلع إلى بصيص الأنوار من نوافذ المساكن المقفلة على أسرار الأسر وخفاياها ، ثم أسرح الطرف على العربات تلوح وتختفى ، وعلى المارة تزدحم وتتبدد ، فأرانى بين كل هذا وحيداً شريداً . أشهد الدخان

يتصاعد حزيناً من السطوح وأشعر بالآلام تجول في هذه الأزقة الملتوية حيث يتراكض الناس وقد كالهم عرق الجهود ويتلامس الألوف دون أن يعرف أحدهم الآخر . فما السبيل العام إلا مزالج تتعارف فيه الأجسام وتتناكر عليه الأرواح ، هنالك لا تمد للغريب يد إلا يد بنات المواخير

إن ما تهتف به المدن إنما هو قولها : — هيا إلى الفساد ... هيا إلى الفواحش ، فما يسكن الآلام سواها

ذلك ما تقوله المدن وما يقرأه المارة مكتوباً بالفحم على جدرانها ، وبالأوحال على أرصفتها ، وبالدم المتجمد في عروق الأوجه الشاحبة

وكنت أجلس أحياناً على مقعد منفرد في قاعات المراقص فأنظر إلى النساء يتمايلن بأثوابهن الحمراء والزرقاء والبيضاء وقد عرين المعاصم وضفرن الشعور كأنهن الحور يسكرهن النور في أجواء التناسق والجمال ، فكنت أقول في نفسي : — ما أروع هذه الزهرات تقتطف وتستنشق ! وما ستكون كلمة هذه الأقحوانات الأخيرة إذا ما تثرت وريقاتها واحدة واحدة لتستنطقها سرها . أنها لتقول لك — قليلا ثم قليلا ، ثم لا أحبك حتى ولو قليلا

تلك هي حقيقة العالم ، تلك هي نهاية ابتساماتك ، أيتها الأزهار

على هذا الشفير المروع تمايلن بأوشحتكن المزينة بالأزهار ، أيتها الراقصات وعلى هذه الحقيقة الشنعاء تمايلن كالهاعلى رؤوس أرجلكن الصغيرات

وكان ديجنه لا يفتأ يقول لي : — والله ما رأيت سواك من ينظر بجد إلى كل هذه الأمور . إنك ترفع عقيرتك شاكيا لفراغ الحق من شرابه ، وإذا فرغ الحق ففي الأقبية من الشراب دنان ، وإذا فرغت الدنان فالروابي مكسوة بالكروم تعتصر لتملأها . اتخذ لك من الكلام المعسول صنارة وتقدم إلى نهر السلوان متصيداً فيه امرأة جميلة تلهو بها حتى إذا أفلتت من يدك لا يفوتك اصطياد سواها .

تمتع بالحب الذي تتوق إليه بكل جوارحك ، ولا تضيع أيام شبابك ، ولو كنت أنا مكانك لكنت اختطفت ملكة بدلاً من التلهي بدرس التشريح .

هذه النصائح التي كنت أسمعها في كل حين ، وعند ما كان يحين زمن الرقاد كنت أتلفع بردائي وقلبي يكاد يتفجر ألماً ؛ فأهرع إلى سريري لأجثو أمامه باكياً مصلياً ضارباً على هذا القلب كما كان غاليله يضرب الأرض قائلاً : ومع هذا فانها تتحرك ...

(يتبع) فليكس فارس

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

(تابع)

ثم غابت عروس البحر فى طيات الثبج ، وتركتنى فى حيرة مما ذكرت ، ثم إنى عدت إلى قمرتى فى السفينة ، وعاد كل إلى قمرته ، وبعد أن تعشينا ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، نمنا نوماً لا آمناً ولا قريراً . . . وبزغت أورورا تموه المشرق بأصباغ الورد ، فنهضت أصلى للآلهة فوق السفين الممتد ، وأبتهل إلى السماء أن توفقنا لما فيه خيرنا ثم انثنيت فتخيرت من رجالى ثلاثة هم أصلحهم لهذا الأمر ، وهم موضع ثقتى ومعقد رجائى . وبرزت من الماء عروس الماء ، وأحضرت لنا أربعة جلود من جلود عجول البحر لنلبسها ، ونستخفى بها ، ولتتم الخدعة على أبيها . وأعدت لنا مهاداً فى رمل الشاطىء . ثم دلفنا نحوها ، ونام كل فى مهده ، وألقت فوقنا ما معها من الجلود المنتنة التى أروَحت حتى كدنا نختنق برائحتها ، لولا أن نثرت العروس فوقنا طيباً عبقاً ، لأحياشيمنا وأنقذنا من صلول[1] تلك الجلود .

وتلبثنا نرقب البحر حتى برزت عجول البحر فنامت فى الجون ، ثم كانت الظهيرة فبرز بروتيوس وطفق يعد قطعانه ، مبتدئاً ، لغفلته ، بنا ، وكأن أثارة من الشك لم تخامره فى حالنا ، فانطرح ونام . واتهزنا الفرصة ، فانطلقنا نعدو إليه ، وقبضنا عليه ، وشددنا وثاقه بحيث لايستطيع إفلاتاً ... يا عجباً ! لقد انتفض انتفاضة هائلة ، فاذا هو أسد غضنفر ذو لبدة ، ثم انتفض فاذا هو أفعوان أرقم يتحوى ويتحوى ، ثم انتفض فصار نمراً رائعاً ذا أنياب ، ثم صار خنزيراً بريا ، فسيلا رابياً ذا عباب ، فأيكة باسقة ذات غصون وأفنان ! ! ولما لم يجد بداً من أن يبدو لنا على حقيقته ، انتفض فكان على صورته الأولى ، ثم قال : « عمرك الله يا ابن أتريوس أى إله جبار حبسك فى مياهنا وسلطك علىّ ، تمسك بى وتشد وثاقى ؟ ماذا تريد ؟ » فقلت له : « حسبك يا رب هذا البحر ، إنك كنت بى عليما ! لقد طال مقامنا بهذه الجزيرة ، ولست أدرى أى إله عادل حبسنا فيها ، ولأى شىء ؟ ! » . وقال بروتيوس : « ويك يا منالاوس ! لم لم تصل لسيد الأولمب ثم تضحّ الآلهة يوم غادرت (طروادة) ؟ لقد غضب الجميع عليك فكتبوا أن تضل فى تيه هذا البحر حتى تكون تلقاء مصر ، فتقيم ثمة حتى يثوب اليك رشدك وتصلى للآلهة خاشعاً خاشعاً متصدعاً ، ثم تذبح القرابين وتجزر الأضحيات فتعود الى أوطانك ! » وعرانى مما ذكر ما عرانى ، فقلت له : « الحمد لك أيها الاله القدوس . . .

(١) أروح اللحم صار نتناً وصلوله رائحته المنتنة .

سأفعل ، سأفعل كل ما تأمرنى به ، ولكن قل لى بحق ربوبيتك ، هل وصل كل رجالنا الى أوطانهم سالمين كما تركتهم أنا وصاحبى نسطور عند طروادة أم أن منهم من غرق أو قتل أو مات حتف أنفه »

وكأنما ضاق بى ، ولكنه قال : « ويك يا ابن أتريوس ما هذه الأسئلة ! أتبتغى أن تقف على كل أسرارى ؟ اذن فاعلم أن أكثر رجالك قد عادوا سالمين الى أوطانهم ، وأن قليلاً منهم من مات ومن هؤلاء قائدان فقط قد قضيا ، وما يزال واحد يذرع رحب هذا البحر ، ضالاً على غير هدى ! . . . لقد هلك أجاكس بما تحدى الآلهة ، وبما ادعى أنه ناج برغم السماء من البحر اللجى الذى كان يناوح سفينته ، فبرز نبتيون غاضباً وشطر السفينة نصفين بضربة قاضية ، من رمحه السمهرى ذى الثلاث شعب ، ثم رطم حطامها بعد ذلك فوق صخرة جيريه ... مسكين أجاكس لقد غص بالأجاج ، وشرق بقطرات ثلات ! .. أما أخوك[1] فقد نجا ! لقد دفعته موجة هائلة فوق شاطىء (ماليا) ... أرض ذيستيس وإيجستوس .. ومن ثمة ركب البحر إلى وطنه آمناً . ألا كم كان أخوك رائعاً حين وطىء أرض الوطن فراح يقبل رمالها ويناجى كثبانها ! ألا ليته ما نجا ! لقد لمحه أحد الأوغاد من جواسيس إيجستوس فانطلق يخبر سيده الذى أعد كميناً من عشرين رجلاً من أفسق رجاله حيث اغتالوه كما يذبح المجل ؟ الأوشاب الفجرة ! لقد باءوا بما صنعوا ، وأبيدوا على بكرة أبيهم ... »

وما يكاد يصعقنى هذا الخبر حتى خذلتنى رجلاى ، وانطرحت أتقلب فى الرمال من الغم ، وأذرف الدمع من الحرقة على أخى . ولكنه خاطبنى قائلاً : « إنهض يا ابن أتريوس . إنك تبكى ولات حين بكاء .. هلم فعد إلى وطنك لترى بعينيك قبره ولتشهد ابنه المظيم أورست ينتقم له ، ويستأصل شأفة قاتليه . »

وكأنما سرى عنى بما قال بعد ، فنهضت وسألته بعد أن شكرته على ما أنبأنى : « .. إذن من هذا البطل الثالث الذى ما يفتأ يذرع البحر ضالاً فى رحابه ؟ »

فقال : « ذاك ابن ليرليس ، وسيد إيثاكا (أوديسيوس) ! لقد شهدته بعينى حبيساً فى جزيرة عروس الماء كاليبسو . . . لقد حل عليها ضيفاً برغمه ، فلقد تحطمت سفائنه ، وهويته عروس الماء ، وهو ما يزال عندها لا يجد مركباً يحمله الى وطنه . . . أما أنت . . . أيها الملك منالايوس ، فطوبى لك ! إنك ستحيا سعيداً ، ثم تنتقل الى دار الخلد ونعيم لا يفنى . . . ودار الفردوس نزلاً . . . حيث لا برد ولا زمهرير ، ولا يوم عبوس قمطرير ، بل نسق ، ومن معك من الأناسى من ماء معين ، لا لغو فيه ولا تأثيم . . . مقام كريم وجنة نعيم ، وغادتك الحسناء هيلين ، ياذرية زيوس المظيم ! »

ثم غاص فى اليم ، وعدت ورجالى الى الفلك ، وفى القلب لوعة ، وبالنفس أسى . وتبلغ كل بالقيات ثم أسلمنا عيوننا للكرى ، وكأنما نام أسطولنا فى ظلام الشاطىء .

* * *

وانبلجت أورورا فنضرت بالورد جبين المشرق ، وهبت أنفاس الصباح المنداة فأهرعنا

(١) أجاممنون الذى نجا من الغرق ثم ما كاد يبلغ قصره حتى قتلته زوجته وعشيقها إيجستوس

جميعاً ، وجزرنا الأضاحى باسم الآلهة وصلينا لها خابتين ، وأقمت لأخى رمساً فوق ثرى مصر الخالدة ، ثم هبت الريح رخاء فنشرنا الشراع وأصلحنا القلوع ، وأقلعنا من فورنا إلى أرض الوطن ، فبلغنا هيلاس سالمين

وبعد ! فلتقم معنا ههنا أياماً تمرح وتفرح ، ونسعد نحن بك يا ابن أعز الأصدقاء ، ثم لنعد لك الهدايا والحلى التى تليق بك ، ولتعد إلى وطنك على عربة فاخرة تجرها ثلاثة من الصافنات الجياد ؛ ولنزودك بكأس ذهبية تصب منها قرابين الخمر للآلهة فتذكرنا أبداً »

وشكر تليماك واعتذر ، وأبدى من الحنين إلى وطنه ، وما عليه من واجبات ، وما ينبغى من عودة ابن ملك بيلوس ، ما بر عنـــده أن يستأذن فى الأوبة ... فأعذره ملك أسبرطة ، وأهدى إليه كأس فيديموس الفضية ، ذات الشفة الذهبية ، الكأس الخالدة التى صنعها الآله فلكان بيديه لينفح بها ملك سيدونيا

وهيأ الندل مقصفاً فاخراً به جزور وخمر ، وأقبلت أزواجهن يحملن الخبز ، فأكل الملك ومن معه ورووا

* * *

هذا ما كان من أمر تليماك ومنالايوس

أما ما كان من أمر العشاق آنئذ ، فقد كانوا يلعبون ويمرحون فى بيت ملك إيثاكا ، يلاعبون الأسنة ، ويقذفون القرص ، ويتصارعون ويمزحون . كانوا جميعاً يأخذون فى هذا اللهو لتزجية الوقت ، إلا أنتينوس ويوريماك ، فقد جلسا بمعزل يتحادثان . إذ أقبل الفتى نومون بن فرنيوس وقد تفضن جبينه ، وانتشرت على أساريره سحابة كئيبة فقال :

« أرأيت إذا أعطيت سفينتى للفتى تليماك فانى أريد أن أبحر إلى إيليس لأرعى أفراساً لى اثنتى عشرة ما تزال ترضع أفلاءها [1] متى يرجع من بيلوس يا أنتينوس ؟ »

وروّع الرجلان لهذا الخبر ، فلم يكن أحد يعلم أن تليماك قد غادر إيثاكا ، بل كانوا يظنونه يجتر آلامه وأحزانه فى أحد الأدغال النامية فى مزارعه . قال أنتينوس :

« أحقاً أنه أبحر يا نومون ؟ وهل صحبه أحد من ذويه ؟ وعلى سفينتك ؟ سفينتك أنت ؟ وهلى أبحر عليها بدون إذن منك ، أم أنت الذى أذنت له بها أول ما طلبها منك ؟ »

وأجابه نومون : « بل أبحر عليها باذنى . وماذا عساك كنت صانعاً لو سألك أمير فى مثل بأسائه أن يبحر على سفينتك ؟ أكنت ترفض وتتأبى ؟ لقد أبحرت معه ثلة من أشجع البحارين ، كلهم فينان العود ، غريض الشباب ، وقد رأيت معه أمير البحر منتور . ألا كم كان يبدو منتور بهيا وقوراً رائعاً ! تالله لقد خلته — بل أكبر ظنى أنه — أحد الآلهة : وكيف لا يكون إلها وقد رأيته بعينىّ هاتين صباح أمس وهو قد أبحر الى بيلوس قبيل ذلك ، فأنى عاد ؟

وفرغ نومون ، وعاد أدراجه الى دار أبيه ، واستولى الذهول على الرجلين ، وكان العشاق قد فرغوا مما أخذوا فيه من لهو ولعب ، وجلسوا يستريحون من التعب ، فيمم شطرهم أنتينوس ،

(١) الفلو ولد الفرس لم يبلغ عاما

وهو يتميز من الغيظ ، وينقدح الشرر من مقلتيه ، فقال :

« يا أرباب السماء ! أفيقوا أيها الرفاق ! عمل باهر ! باهر جداً ! لقد أبحر الفتى تليماك فى عصبة من شباب الملاحين ليؤلب عليكم العالمين ، ويرسل علينا حسباناً ! ! الويل له ! أعـــدوا لى مركبا وعشرين فارساً من أبسل صناديدكم لأخبأه بين أواذىّ ساموس وثُنُوء إيثاكا التاعس الذى ذهب يسترح أخبار أبيه ليسعى الى حتفه بظلفه »

وتحمّس الملأ وعلا هتافهم ، وهرولوا إلى الرحبة الداخلية فى بيت أوديسيوس يتآمرون ، وكان على مقربة منهم الأمين ميدون ، الذى انطلق بدوره ينقل ما عقدوا خناصرهم عليه من إفك الى الملكة الباكية المفئودة ... بنلوب — وما كاد يقص عليها ما اعتزموه من قتل تليماك حتى تضعضعت وتخاذلت ومادت من تحتها الأرض ، وتحبّست أنفاسها هنيهة ، ثم سألت ميدون فيم أبحر ولدها . « ألكى ينقرض اسمه من صفحة الوجود ؟ » وأجابها الرجل : إنه ذهب يتسمّع الأنباء عن أبيه . ثم ذهب لطيّته ، وجلست الملكة المرزّأة لدى الوصيد تبكى وتنتحب ، ومن حولها الغيد الرعابيب والعجوز الشمطاء من خادمات القصر ، يُعولن ويكفكفن ...

قالت الملكة : « ويح لى أيها المذارى ! أبداً ما أحسب واحدة من النساء قد لقيت بعض الذى لقيت مما كتبته علىّ السماء ! لقد فقدت زوجى ، أسد هيلاس الكريم أوديسيوس الأمير الحُلاحل رجل الفضائل والمروءات ؛ ثم لم يبق إلا أن يرحل عنى ولدى . . . دون أن أعلم أمر رحيله من إحداكن ، فكنت أحول بينه وبين ما اعتزم ولو أدّيت ثمنا لذلك روحى ! ولكن ... هيا ... لتمض دليون — خادمتى الوفية ذات التجاريب — إلى ليرتيس — فلتحدثه عما تآمر الذئاب . وَىْ ! لم يبق إلا أن يقتلوا ولدى وسليل أوديسيوس ! »

ونهضت يوريكليا مرضع تليماك ، تنثر دموعها وتقول :

« وا أسفاه علىّ أيتها الملكة ! سأعترف عما كان ولك أن تقتُليني ... أو تبقى علىّ ! لقد زودت الأمير بكل ما أمر من زاد وخمر ، وأخذ على موثقاً ألا أبوح بسره حتى تمضى اثنا عشر يوماً بتمامها ... حتى أنت يا مولاتى ! لقد أمرنى ألا أعلمك بشىء اهدئى يا مولاتى ولا تضاعفى أحزان القصر بحزن جديد ، وامضى الى مخدعك فاستريحى ثمة ، ولنصلّ جميعاً لربة العدالة مينرڤا — بالالا الطيبة — أن تصون مولاى الأمير وترعاه ، وتكلأه من كل خطر وليعد الى عرش آبائه ليحكم ويعدل ويدير شؤون البلاد .

ورقأ الدمع فى عيون الحاشية ، ونهضت بنلوب فصعدت الى الطابق العلوى ، وأمرت بسلة من الكعك فنفحت بها العذارى قرباناً لمينرڤا وتقدمة ، ثم أرسلت هذه الصلاة :

« إسمى يا ابنة سيد الأولمب ! يا مينرڤا العادلة ! باسم ما ذبح لك أوديسيوس فى هذا القصر وما ضحى نضرع اليك ونتوسل بك ونصلى لك ، أن تصونى ابنه الأمير وأن ترسلى عبوسة من شواظ غضبك على أعدائه ... أولئك الأضياف الظالمين ... آمين »

وانهمرت الدموع من عينى الملكة فاستجابت مينرڤا صلاتها . ثم علا ضجيج القوم وارتفع صخبهم ، وكان فيهم شاب نزق الثالث فى أذنيه صلاة بنلوب فحسبها أشرفت تناغى وتغازل ، فراح يعرض بها

فى كلمات قوارص ، قطعها عليه أنتينوس بتحذيره القوم ، ونصيحته لهم أن يستعينوا على حزم أمرهم بالكتمان .

وتخير أنتينوس عشرين من خيرة رجاله ، ويمم بهم شطر البحر ، ثم ركبوا فى سفينة أعدت لما اعتزموه من تلصص وقرصنة وفتك إعداداً كافياً فنقلت إليها الأسلحة ، وحملت إليها حمال الزاد والذخيرة ... وأقلعت ، لا باسم الآلهة مجراها ... ولا سلكت سبيل الرشاد .

* * *

واضطجعت بنلوب فى فراش حشوه فكر وهم ، وجاشت فى قلبها الوساوس ، وطفقت الأوهام تفتك برأسها القلق الحيران بسبب ولدها ، ومادبر له الكلاب وما كادوا ، مسكين أيها الأسد ! لولا قوتك وجبروتك ما أكثر سائدوك حولك الأحابيل .

وأخذتها سنة من النوم ، فأقبلت مينرفا الكريمة فى رؤيا عجيبة تواسيها وتذهب عنها ذلك الطائف الحزين ، فتزيت برى الأميرة الفتان ، إفتيما ، ابنة البطل الكبير إيكاريوس ، ثم وقفت عند رأسها ، وشرعت ترسل هذه الأحلام :

« أهكذا تنامين ملء عينيك الجميلتين يا بنلوب العزيزة ؟ ليفرخ روعك ، وليصف بالك ، فالسماء ترعى ولدك ، وهو عائد إليك عما قريب ! إنه لم يقترف شيئاً مما يغضب الآلهة ، ولذا فهى تكلؤه وترعاه وتحفظه ، فقرى عينا واسلمى وانعمى ! »

وتقول بنلوب إذ هى تحلم :

« من ؟ إفتيما ؟ عجباً ! فيم قدمت يا أختاه وقد ندر أن كنت تلمين بهذا القصر ؟ ألتواسينى وتسلينى ؟ لقد تكاثرت الأحزان على قلبى ، وتكسرت النصال على النصال . . . لقد فقدت زوجى . . . أسد هيلاس وفخر آرجوس ، وعزى الأبدى ! ثم ها أنا ذى انتفض فرقاً على ولدى ... ولدى الطرى الفينان ، الذى لاقدرة له ولا احتمال ... فى هذا البحر اللجى ... لقد أقلعت به سفينة كأنها تسبح فى بحر من دمى وأحزانى ! وها قد تعقبه الأشرار فى سفينة أخرى يريدون غيلته قبل أن يرتد إلى وطنه ! »

وتجيبها مينرفا : « لا عليك يا ملكة ، ولا عليه هو الآخر ! إن معه راعياً يحفظه ويوقيه ... راعياً يتمنى الجميع أن يكونوا فى رعايته أبداً ... مينرفا ! إنها أيضاً تبشرك وترفه عنك ، وأنا هنا رسولها إليك ، أقبلت بأمرها أواسيك ! »

وهلمت بنلوب ثم قالت : « وَىْ ! أما إنك إذن لربة وقد كلمتك الأرباب ... ألا قصى على إذن ما كان من أمر رجلى ؛ أما يزال حياً يرزق ؟ أم تخطفته يد المنون ؟ »

وتضاحك الشبح العابس فقال : « لا ! ليس الآن ! ان أذكر لك إذا كان رجلك ما يزال حياً أو إنه قد قضى ، مالنا ولذلك ؟ »

ثم رفت فى ظلام الغرفة ، وصعدت فى سماء الأحلام

ونهضت الأم وقد سرى عنها بهذا الحلم ، وانجاب كابوس الهم الذى كان يثقل على قلبها

* * *

وأقلع العشاق بفلكهم فى اليم المضطرب ، كل تحدثه نفسه بقتل تليماخوس ، حتى كانوا عند برزخ أستريس ، بين ساموس وإيثاكا . . . فأرسوا ثمة يتربصون

(يتبع) دريني خشبة

سر أبي الهول

مسرحية شعرية في أربعة فصول

للشاعر الفرنسي سوريس رستان

بقلم الأستاذ خليل هنداوي

المشهد الخامس من الفصل الثاني

إزابيلا ، باريس ، أرجانتي ، مارسيللوس

(تدنو إزابيلا من باريس ، تراه وتقول بصوت متقطع غريب اللهجة)

إزابيلا — « يا حبيبتي ! ها قد هبط الليل على روما

ورداء أزرق الحواشي قد انبسط على الأعالي

لا أرى إلا السماء ، ولا ألمح أحداً

ولا أفكر إلا فيك ، لأنني لا أهوى سواكِ

كنت — يا حبيبتي — هذا المساء شعلة الروح المتأججة في المسرح

ألا عطفاً لألحانك التي جعلت شعباً كاملا يفهمني

ولكني لا أهوى منك شهرتك ، ولا مجدك ولا فنك ...

وإنما أهواك أنت يا إزابيلا !

أنت حبي الأكبر وكل وجودي يهتز لك ...

كل كياني هنالك ...

هذه الليلة ذاتها ، كنت أود أن أقول لك قبل متنوع النهار

النهار يفصل قليلا

بين المحبين العاشقين

ولكني ، يا إزابيلا ،

لن أغادرك أبداً

(تقف قليلا ، ويكون هنالك سكون يفصل بين النفسين ، وكأن باريس يفكر ويذكر وينشر الماضي)

وداعاً يا إزابيلا !

إن ريح مصر تصفر ،

شكراً لأني أدركت حلمي الذي يرتعش

سأرحل ! وحين أرحل وانتهي إلى أطراف الوجود يستحيل بيننا اللقاء يا إزابيلا »

باريس — (متأثراً) ما هذا أيتها السيدة ؟

إزابيلا — (بغرابة وبرود)

وها هما كتابان منك ، أحدهما في بدء حبنا والآخر في منتهاه فليس معنى المرأة — يا باريس — إلا أن تتذكر حين يتنامى الرجل

باريس — (تحيط به الذكريات)

إزابيلا — آه — المسرح — أوروبا — ! ها أنت تنظرين ، إنني أحيا وحدي ، وفي بعض أحياني أخوض الصحراء راكباً ، أو أطوف في النيل على زورق

(ينظر إليها طويلا)

وأجمل من هذا ألا أفوه بكلمة ...

إزابيلا — وأنت في شعرك عدو الصمت

باريس — من أين جئتِ ؟

إزابيلا — جئت من فرنسا حيث مثلت مسرحية « فيدر »

باريس — أتمثلين دائماً ؟

إزابيلا — المسرح هو كل شيء ، فاذا هجرته أموت سأماً ، إنني فقيرة الى أن أطرح هذه الأضواء العميقة كحصن بيني وبين الناس

أرجانتي — انتصاراتها الأخيرة سودت وجوه الأولين . آه لو تراها في مسرحية « الفينيقيين » أو في « تاجر البندقية » !

إزابيلا — نسيت « هيلين » حيث كنت أتناول بأناملي أجمل أكاليل الغار ، حقاً لقد مثلتها أكثر من المرات السابقة

باريس — عن أية هيلين تتكلمين ؟

ايزابيلا — عن « هيلينك »

باريس — أعن « هيلينى » ؟ بلى ذكرت : فهل اسمي في الفضاء ينادى اسمها ؟ هيلين . وبأى حق جرىء يسمح لى بأن أفتح جفنيها . هيلين ؛ انني أكذب ككل انسان ، هذا ضلال ، انني لم أذرف دمعة على قبرها

ايزابيلا — البكاء باطل حين تبتكر العبقرية .

باريس — الأثر الخالد هو دمعة حية .

ايزابيلا — إن حاضرك ليغار من انتصاراتك الماضية ؛ يلزمنا الآن قطعة جديدة منك ، وروما لا تزال تريد أن يخفق فؤادها لانتصاراتك .

أرجانتي — كذلك .

باريس — هات إنائى يا مارسيللوس !

مارسيللوس — (يتناول مارسيللوس إناء ويعطيه لايزابيلا) .

وهذا ما سلم من النار ؛ ولهذا ترين هذا الاناء مصبوباً على هيئة قلب .

ايزابيلا — (تأخذ الكأس بيديها ، وترفعه حتى شفتيها بخشوع اليأس والحب)

الاناء التي كانت تحمله « أرملة بومبي » لم يتبلل بكل هذه العبرات الالهية ، وإذا كان حقاً أن — هنالك — كل آثارك الآتية ، فلتبك عيناى دون وخز في هذا الهواء ، ولتنعم — إلى الأبد — بدموعها القلقة هذا الأناء حيث يتهدم فيه حظ شاعر .

ارجانتي — وواجبك نحو عالم غيور ، فأنت لم تعد لفنك ، وإنما لنا ! قلب الشاعر العظيم هو يقظتنا وهو — حين يصمت — يقهرنا .

باريس — فكروا فيما يروقكم !

ايزابيلا — لا حق له في ذلك ، لقد احتملنا منه تلك الحركة حين قذف بقطعة على الملأ . . . ومن ذلك الحين ولى هارباً ، ولكننا نريد أن نفكر في عودته إلينا

باريس — لم يعد الفن من الكبر ما يتسع لأسرارى .

ايزابيلا — ألا تعرض بعد اليوم عبقريتك على الناس ؟

باريس — (يضرب على صدره) يكفيني في الليل أن أعلم أنه — هنالك — يزمجر !

ايزابيلا — وإذا لم يعد يزمجر ؟ هل تعلم ماذا يقولون ؟

باريس — (بسخرية) أنني هرم بلا شك ، وعمرى ثلاثون .

ايزابيلا — ويقولون : إنك في جذوة اللهب أصبحت شعلة خامدة ، وإنك بت تخشى الجمهور ، وإن القطعة التي صفعت بها الشعب لم تتم في الحقيقة ، ولكنك أردت إخفاء نزعها بما عملت ، هل أنت تارك سوقا لمثل هذه الشائعات ؟

باريس — ما يهمني ذلك ؟

ازابيلا — أو تارك اسمك يغيب فى الليل ! وكوكبك ينطفىء فى اللحظة التى أخـذ يلمع فيها ، إن الخطأ الوحيد الذى يُرتكب حيال المجد والحب هو الاعتزال ؛ إنهم — ولا ريب — قد تكلموا كثيراً عنك فى الشهور الأخيرة وعن مسرحيتك « أبى الهول » ، ولـكن الصمت اليوم يخيم على الجميع ، وهذا « سير ماران » مفعم غبطة وهناء لتفوقه عليك ، وحين تبتعد العبقرية يحل الاكتساب محلها .

باريس : ليس هـذا بحق ولا يمكن أن يكون حقاً ، إن هـذه الجبهة التى يكللها النور الذهبى ؛ والتى يتوجها الغار ، هذه الجبهة ، لا ترضى بأن يسلبهـا تاجها رجل أقل شأناً ، لا يجدر بك أن تقنع بهذا النسيان المهين ؛ وحين لا يناضل الانسان فمنى ذلك أن أراه انتهى ؟ فهل تتركهم يفكرون بأنك هذا الانسان ؟ وهل تترك الشعب العاجل يتخذ شاعراً غيرك ؟

باريس — إذا كان هذا هو المجد ؛ وإذا كنت تقولين حقاً فالأجدر أن يراه من بعيد لا من قريب ؛ إذا كان هذا هو المجد — يا أوروبا ! — فانى أوثر هذا الليل الأزرق فى أفريقيا حيث اقتفيت أثر أخى ، وهذه المشاهد التى لا تنتهى ، وهذا الهواء المترنح بشذاك العظيم .

أنظرى ! يا للرقة ! فضاء خال من هتاف الاستحسان ، ووجوه المصورين ، وفى المساء حيث يرقد أبو الهول ؛ رجلاه فى التراب وجبينه فى السماء ، هل لحيته يتشمشع تحت لألاء القمر .

أجل ! لقد جئت يقودك الجزع ، عارفة فى الحقيقة من أنا ؛ جئت تتكلمين لى عن أدوار وعن استحسان ، وهنا ، هنا فى هذا البلد ، وإزاء هذه الطبيعة دون أن تجرئى على النظر إلى وجهه .

ازابيلا — باريس !

باريس — انظريه ؛ أريد أن تتعرفى إليه .

أيتها السيدة إنه أبو الهول ، ويا أيهـا السيد — مدير مسرح أوروبا — ارفع قبعتك جلالاً ، هذا هو الأوحد الـكبير الذى يلتحف كل الأبدية ، يحيط به حشم غير منظورين هم القرون الانسانية يجثون أمامه ، قبعته الحجرية مبللة بالندى ، هى قبعة قيصر أو قبعة الأهرام ؛ والآن أفيكم جرأة على تحديثى عن العبقرية وعن اندادى وعن المشاهد ؟ ألا فاخشوا أبا الهول أن يهز الأرض ضاحكا فى حالة من حالات هذيانه !

ازابيلا — إنك لتسخر باطلاً ! هل بامكانك أن تصرف الناس عن لومهم لك بأنك انتهيت ! يا باريس ! ماذا يهمنا أبو الهول ؟ هذا المارد المملاق الذى يقف على هذه المدينة النائمة ؟ والذى نريده بقلب غيور هو أبو الهول الآخر ؛ أبو الهول الذى كان لا يحيا إلا بك ، لأن مدينته كاملة تقول بأنه غير موجود ؛ ولأن هذه الضوضاء الباطلة لبثت فى جميع روما ، فأثبت لها بأنها مخطئة : وهى تظن أنها لم تكن إلا طايمة مهملة فأثبت لها بأنها مخطئة !

اسمع لى يا باريس وأنصت لى ! إن المدينة ذات التلال السبعة تود أيضاً — فى عمرها المنحط — أن تحمل أثرك كياقوتة ثمينة ...

باريس — (هازاً كتفيه)

أنكرت « أبا الهول » ماذا كنت تفكرين فيه ؟

ازابيلا — ولـكن ...

باريس — أجل ! ماذا كنت تفكرين فيه !

ازابيلا — (مغضية الطرف)

كان أجمل آثارك

باريس — وماذا يهمك بعد هذا ذلك الصياح وتلك الأعمال ؟ يكفيك أن أثراً جميلاً خُلق . . .

ايزابيلا — ألا شيء بعده ؟

باريس — لا شيء

ايزابيلا — (بصوت منخفض) (إلى ارجانتى ومارسيللوس)

دعانا الآن وحدنا ! ينبغى ذلك ، إن كليوباطرة أضاعت ممالكها ، أما أنا فأريد أن أنقذ ممالك . . .

(ينسحب ارجانتى ومارسيللوس ، وتنفرد ايزابيلا بباريس ، وكان الليل يهبط رويداً رويداً)

المشهد السادس

باريس — أقول لك معاوداً مؤكداً بألا شيء أقوله لكِ .

ايزابيلا — (تدنو منه برقة وهوى)

ولكنه يجب ذلك ؛ كيف تأبانى حين أكلمك باسم قبلاتنا ؟ « لا المجد ولا الفن » كتابك الأول فى قلبي وفى ذاكرتى ، ووجودى كله كان يهتز لهذا القسم الفيور ! لماذا لم تأت بى معك إلى هنا ؟ إننى لأسمح عن تقلباتك وعن عتوك ، ولا أسمح عن غيابك ، وتريدنى ألا أتألم منك حين أسمع وقع قدميك .

باريس — قد كان يجب علىّ ؛ إذ كان يصعد إلىّ — من أعماق نفسه — نداء أكبر من الذى أجيبه .

ايزابيلا — أى نداء ؛ بقرب أى نداء يتلاشى هذا النداء ؟

باريس — أصبح الحب أصغر من أن يحيط بأسرارى .

ايزابيلا — صه ! لا شيء أكبر من الحب ؛ عند ما يذكر على اللسان يظهر شحوب الموت على وجوه الرجال ، وإذا كان الشعر يثير الكون فذا لأن الشعر هو حب أيضاً .

باريس — لنجتنب الكلام عن الحب .

ايزابيلا — هذه المدينة التى تقدسك ، المدينة التى ما زلت أراها بعد رحيلى عنها ، أما تنبأت أنت بما يحتمل قلبى ؟ قبلاتى كانت أنم آثارك ، وعبثاً تمعن فى الفرار منها لاجئاً إلى هذه الأهرام ، إن هذه العصافير المبللة تعود إليك ؛ تعال فان ظل الشمس بدأ يحيا ، تعال نحيا ، تعال نتألم ، تعال نبدع ، تعال إلى الحب .

باريس — لا أريد ... لا لا ...

ايزابيلا — إن هنالك أشياء تخفق فى صدرى ، أنصت لى فأننى أمثل كل بطلاتك ، كل من تود ومن تريد ، إن دم « ايزولت » هو هنا يجرى فى ذراعىّ ، وهيلين أعارتنى صوتها الرنان ، وعندى عينا « بيرينس » لأعبدك .

تعال ، تعال ! إنى كصحيفة من رخام مهجور فقيرة إلى من يترك قلبى يخفق من أجله ، فقيرة إلى أن أحس فى حاقى الجامد أشعارك العظيمة المتوقدة تنبثق كالجزر فى اليم .

فكر ، لم يعد بى حياة ، اسمع لى ! أعد علىّ قلبى الخفاق ؛ وصوتى المنطلق ؛ اننى أحتضر وشحوبى هو الدليل ؛ أعد لى قبلاتك ورواياتك .

باريس — (واضعاً يديه على جبينه) إننى جاهل الآلهى ! هذا الصوت

ايزابيلا — هذه عبقريتك تتكلم فى أعماق نفسى .

باريس — ما تذوقت أبداً هاتين الشفتين الهائجتين .

ايزابيلا — هذا هو دمى الذى يتحرك فى الليل لمصيرى .

باريس — لا ! دعينى .

ايزابيلا — (تضمه إليها) اسمع !

باريس — ايزابيلا !

ايزابيلا — لقد ملكتك ! إنى لأتمثل تلك الليلة من الصيف الأخير ، هل تذكر ؟ اذكر أيامنا الملتهبة إلى إيطاليا ، وقبلاتنا فى الشرفة الزاهية ، وذلك الكهل الذى كان يبتسم ، اذكر ذلك الكهل ! آه لقد كان فى عيوننا قبس من الشمس ، وكانت الأمسيات لطيفة ملائمة لهوانا ؛ ولكن مصر هذه تشبه شيخوخة العالم ، لماذا تنفر من بين ذراعى ؛ هنا أريد أن ألثمك ، هنا عن كثب من هذه الرمال القاتمة .

(فتحت النافذة ، وبدت منفيس ، النجوم ... الطبيعة . أبو الهول)

باريس — ايزابيلا !

ايزابيلا — الى أبى الهول الأعظم الذى ذرف عمره على ألوف الأعوام ، وبلغ من الكبر ما يبلغ حظنا من القصر ، اليه ؛ الى أبى الهول تعال !

(قادته إلى النافذة المفتوحة وهناك فى الليل بدأت تهمس له)

ان النهار الأزرق جلبابه ينتهى الآن . والليل طفق يرصع عنقه بالكواكب ، والقطعان تؤوب الى حظائرها ، وهذا النخيل يشمخ ويتطاول كأنما يريد حمل السماء على أوراقه الخضراء ؛ وهذا صوت قيثار بعيد يصل كرجفة بيضاء . وهنالك على قيد خطوات ، فى الجيزة المتبخترة زهواً — نسوة ملتهبات متلويات الخصور يرقصن ويرددن بألحانهن الجديدة أهازيج الشمس والنيل ...

ماذا ؟ قلت : الشيخوخة ؟ ويقول : — هذا البلد ، بلد الشمس والرمال والشقاء ! هذا البلد — وهو فى حالة يأسه — يريد أن يحيط حبنا الجديد بوسائل زينته القديمة

لا تنعام عن هذه الليلة الجذابة الفتانة ، أنصت الى أصوات هؤلاء النسوة ينشدن بعيداً

تقول أغانيهن : الحب !

وتردد الصحراء : الحب !

ويرجع الليل العميق ، والبحر : الحب !

ويقول أبو الهول الجاثم على هاوية الرمال ، المسترسل للحلم استرسالاً أبديا : الحب ! نعم ! كل شىء يمضى ، وكل شىء كضباب زاحف على القمم . ولذلك ينبغى أن نحب بدون انتهاء ! فلنحب ...

إننا سنتلاشى فى الليل الذى يقترب منا كهذه القطعان التى نعد أجرامها ، لنحب إذاً : لنحب حباً لا يفنى ولا يبيد ، وكل من لا يحب يقضى حياته سُدًى . وليشهد على حبنا هذا العملاق الراسى ذو الجناحين ، وليشهد على حبنا الفتى هيكله الأبدى .

باريس — (مرتعداً مضطرباً متأثراً) .

وأنا سالخ نفسى عن هذه الصحراء العميقة إذا انتزعتنى أيتها الآلهة البشرية ، إذا ... ولكن ما دام الأمل يلمع فى ناظرك الأزرق فأنا أقبل تجديد الصراع والمسرح ، وإذا ما نفيت ذلك عن نفسى فأى أثر أمنحهم الآن ؟

ايزابيلا — (برقة وفتنة) .

الآن :

باريس — أى شىء أستطيع أن أهب لهذه

الأفئدة التى تعبدنى ، آثارى المحرقة تسكن هـذا الاناء ، وكل غابرى النارى يرقد فى هـذا الرخام الرمادى ، أما أبو الهول » ...

ايزابيلا — بأبى الهول ؟

باريس — الوحيد من آثارى ؛ الوحيد الذى خلد ، هو ذلك الذى طرحته أرضاً وأنا كالوحش وتقيله الشعب جميعاً بوجهه . بلى ! لقد مزقت كل شىء من هذه الصحف المسودة ، ولم يبق لى قصاصة منها .

ايزابيلا — (مادة إليه يدها بالأثر) .

هذا هو !

باريس — إلهى !

ايزابيلا — نعم ؛ لقد قايلت هذه البقايا المبعثرة الحقيرة ، وأعدت الأثر كله ، فاستنقذت الأثر النفيس من النسيان ، وهكذا أيقظت أبياته ووقفت على أشماره ، وهـذا بعض واجب المرأة أن تعيد نظام ما يبعثره الانسان ، أو تجد ما يبيده .

(ترفع الأثر الذى أنقذته)

ها هو الأثر المنقذ !

باريس — أهو ؟

ايزابيلا — هو الأثر الوحيد الذى ستستطيع بواسطته أن تجابه نقادك ! أترى أيها التاعس الذى دمعت عيناه كيف تأسف كفك على تمزيقه . والآن فارحل وليسبقنا ارجانتى !

تعال نتروح النسيم ، تعال ونذوق فى السكينة الصخب الذى كانت تفطمك عنه روما ، عد لتعود شهيراً فى بلد السرو ، ودع عنك هذا التخيل الهرم وهذه الطرق الطافحة غباراً ، وهذا النهر ، وهـذه الصحراء ، وأبا الهول الغريب !

(يهمان بأن ينطلقا متعانقين ، وفجأة ينفصل عنها باريس)

باريس — أصغى ، أصغى ، أصغى . هل تسمعين هذا الأنين ؟

ايزابيلا — لا أسمع غير هـذا الريح التى لا يختلف ، يرافقها هدير النهر الكبير .

باريس — آه يا إلهى ، ما العمل ؟

ايزابيلا — لذة الليل تفتح لنا جوها ، وصدى قبلة واحدة قد يهيجها .

باريس — لا ! إننى أسمع نداء .

ايزابيلا — إنك لا تسمع إلا ندائى .

باريس — إنك — فى الحقيقة — لست مهيأة لسماعه ، ولكن أنا الذى أحيا وسط هـذه الرمال الذهبية ، ذا أذن مرهفة وقد سمعت كل شىء سمعته كصرخة سفينة ضالة ؛ تجوز الزمان والحدود والفضاء ... قبلتك ليست بشىء ؛ قبلتك تتلاشى حين أسمع — غامراً الصحراء متموجاً فوقنا — هذا النداء الذى ينازع كل شىء من أجلى .

ايزابيلا — كيف تسمعه ضد من يعبدك ؟ هل هنالك صيحة يستطاع سماعها بين قلبين متحابين يخفقان ؟

باريس — مهما تدانى قلبان فالقضاء يمشى بينهما ، بلى ، بلى ؛ المحى بعيداً ندك الخالد على الدهر هذا هو المعلاق الذى ينادينى . إنك تحدثينى عن القبل ! فكرى أيتها الابنة البعيدة عن المخاطر ، فكرى فى كل ما تقوله إلهة النيل . إنه ينادينى إزاء النهر الذى لا يبيد . أهو إنسان أم وليد ؟ أم امرأة ؟

إنه أبو الهول : وهو الذى يعلم السر ، ويعلم لماذا خلقنا ولماذا نحيا . وحين نفكر فى أنه يعلم كل ذلك أرانا نرتعش ! . . . إننا — بابتعادنا عنه —

لن نحيا متجاورين معاً ...

ايزابيلا — صه !

باريس — لقد فررت من الأمل واللذة والطموح ، وأصبحت لا أهيم إلا بالانحناء عليه ، لاهدف لى سواه ! وحياتى تمضى خالية من الحب والأصدقاء ، والآلهة فارغة منك ، ومن الكتب لأن « آباء الهول » فى أجواز الصحراء يغارون من القليل — من الانسانية — التى تجرى فى نفوسنا كنت أخال أنه هدأ وسكن ، ولكنه قد أحس خطواتك المبطنة بالحب ، على هذه الطريق ، لقد شعر — ولا ريب — بخطر يداهم . فهو يناديني بلهجة أكثر عنفاً : « تعال » .

صوت أبى الهول من بعيد — تعال !

باريس — اسمى صراخ هذه الشفة الهامدة ، هاهو يوقظ «مارسيللوس» المتلظى فى حُمّاه . لاشىء يقف دونه — قلت لك — لا شىء !

(يدخل مارسيللوس شاحب الوجه)

المشهد السابع

باريس ، مارسيللوس ، ايزابيلا

باريس — أسمعته أنت أيضاً ؟ لقد كنتُ هنالك بجانب ايزابيلا .

مارسيللوس — نعم ! وليس أجمل منه هذه المرة .

باريس — لقد كان صراخا رقيقاً مرناناً .

مارسيللوس — وواضحاً !

باريس — كان كآله خالد .

ايزابيلا — لم يكن ذاك إلا حفيف الريح بين الأوراق .

مارسيللوس — لا ، لا ؛ لم يكن ذاك بحفيف هواء ؛ كان أشد من ذلك .

باريس — هل أنت معتقد به ؟

مارسيللوس — كان يقول : « تعال » وقد سمعته جلياً ؛ اسمع أنت ، يجب علينا أن نوافيه ونسعى إليه ، لأنه سيكلمنا هذا المساء ... وذا شىء حقيق .

باريس — شكراً يا مارسيللوس ! إن نظرتك تزيدنى يقيناً ، إذ لم أكن واحداً فى استماعه ، ولكنه ...

مارسيللوس — يدعونا فى جوف الليل الخائف وكفه الضخمة الرمادية تقتحم السكون . إنه ينتظرنا يا أخى . إنه يحمل القمر على جبينه .

ايزابيلا — هل أنتما مجنونان حتى يختطفكما منا ؟ إن هو إلا تمثال بارد طوى ألوف السنين .

باريس — انه سيروى لنا لماذا نحيا على الأرض .

ايزابيلا — انكما ستصدمان الجبين بيكمه وخرسه .

مارسيللوس — إنه يفسر لنا العناية التى لم يشهدها أحد منا .

ايزابيلا — باطلاً يشير الانسان على تمثاله .

مارسيللوس — إنه سيبين لنا ما خبأته لنا الأقدار ، وبه نعلم لماذا خرج (لازار) من لحده شاحب اللون كأنه خارج من سرير .

باريس — وجهلنا يمزقنا ويحطمنا .

مارسيللوس — وعن أسرار الموت يحدثنا .

ايزابيلا — كفى ... كفى !

مارسيللوس — كلمات الغد الجديدة ؛ أريد أن أفهم كل هذا ، وان كان حتفى بذلك .

ايزابيلا — أيها الولد ! ان قلبك الغر لا يدرى

ما يقول فى المسائل الكبرى ليس لها جواب ، وكلما زاد التنقيب فى السمى وراء حكم هوائى زادنا ذلك أننا لا ندرى شيئاً .

مارسيللوس — ولكنى سوف أنتزع من هذا المارد جواباً كاملاً .

ايزابيلا — وان يك لغزاً فانه من حجر .

باريس — لا لا : فلقد رأيت جفونه ترتعش

ايزابيلا — ذلك قلبك الذى يدق بالقرب منه .

مارسيللوس — وسمعك فى أعماق نفسى كلامه .

ايزابيلا — ذلك فؤادك الذى زاد وجيبه ألا ينبغى الذهاب نحوه ؛ حقاً ان هذا الليل لرائع والفراغ المظلم يملأ الوادى . ولكن هنالك الحب ؛ هنالك النور ، والورود التى يداعبها الريح .

كنت تحبها قبلاً ...

باريس — أحببناها يوم كانت أفئدتنا هادئة .

دعينا نمر !

ايزابيلا — سيبزغ الفجر .

باريس — دعينا .

ايزابيلا — هنالك حلاوة الوجود ولو لم يفسر معناه ؟ والصيف ؟ أليس هنالك الصيف الذى يسطع على الأكوان ؟

هنا لذة غدائر النساء الشقراء أيها الفتيان ! هنا لذة بأيدينا ! فلا تعدوا وراء أبى الهول فانه يقتلكما .

باريس — (آخذاً بيد مارسيللوس)

وأنت لم ترتجف فى حين مثل هذا الارتجاف ...

مارسيللوس — انى أفكر فى « سانتيا » التى ترقد هنالك . سرعان ما يخمد اللهب غالباً اذا ترك .

باريس — هلم لنعلم هذه الشعلة لماذا تلتهب ، ثم بعد يوم تخمد ؟ تعال ! فما أقصر هذا الغياب بالنسبة للغياب الثانى . انه سيقول لنا كل شىء . تعال !

ايزابيلا — قفا ! فالدار بيضاء محفوفة بغراس الآس ، والريح تعول فى الليالى الأكثر ازعاجاً ، هنا خصائل النساء التى تلوح سوداء ؛ هنا الفن والحب والطرق المعجبة . . .

صوت أبى الهول — تعالوا . . .

باريس — اسمعيه يجيبنا

(فجأة تعصف الزوبعة ، والبروق تلمع خلال السماء وعلى ضوئها يلوح أبو الهول)

أبو الهول — تعالوا . . .

ايزابيلا — (متعلقة بهما)

لا !

مارسيللوس — ان نداءه العالى يشق حنادس الظلام ، اننا نتبعه حتى أطراف العالم

أبو الهول — تعالوا . . .

باريس — لا نتردد ! لنمش من غير ارتعاش ولا وجل !

ايزابيلا — ابقيا !

أبو الهول — تعالوا . . .

ايزابيلا — ابقيا . . .

أبو الهول — تعالوا . . .

ايزابيلا — ابقيا . . .

أبو الهول — تعالوا . . .

(يبدو من الشرفة أبو الهول يلمع عليه القمر ، ايزابيلا تمشى ، ومارسيللوس وباريس ينسلان فى الليل بينما كان صوت أبى الهول يتردد)

(يتبع) خليل هنداوى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر